

الفنوى المحموية الكبرى

تأليف

شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية

(٦٦١ - ٧٢٩)

(الطبعة الرابعة ١٤٠١ هـ)

نشرها

مركز الدراسات والبحوث
فقهية الحديث والخطبة

طبع في مطبعتنا السلفية هذه الطبعات
الطبعة الأولى في : ١٣٥١ بمكة المكرمة
» الثانية في : ١٣٨٧ بالقاهرة
» الثالثة في : ١٣٩٨ »
» الرابعة » : ١٤٠١ »

طبع في دار

المطبعة السلفية - ومكتبتها

٢١ شارع الفتح بالروضة - القاهرة

تليفون ٨٤٠٣٦٤

هذه الفتوى

بإشراف د/ محمد

سنة ١٤٢٣ هـ

كان شيخ الإسلام المؤلف تغمده الله برحمته قد استفتى من مدينة حماه عما يجب للإيمان به من صفات الله الثابتة في كتابه الحكيم وصحيح سنة رسوله الكريم - كالاستواء على العرش ، والعلو ، والنزول إلى سماء الدنيا إلخ :

هل هي على ظاهرها أم لا بد من تأويلها ؟ والإيمانه به واجب

فأجاب على ذلك بما كان أجاب به الإمام مالك بن أنس وشيخه ربيعة . وهو أن الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، وأن هذا ما كان عليه الأئمة المتبوعون والصحابة قبلهم والتابعون . فهاج القائلون بالتأويل على هذه الفتوى :

فرأى شيخ الإسلام أن يزيد هذا التحقيق الإسلامى بياناً ، فأضاف إلى الفتوى نصوصاً عظيمة عن أعلام العلماء من أتباع المذاهب الأربعة والصوفية ، كأقوال ابن أبي زمنين الأندلسى المالكى ، وابن خفيف الشيرازى الشافعى الصوفى ، وعمرو ابن عثمان المكي الصوفى وغيرهم ، فانتشرت الفتوى بعد هذه الزيادات انتشاراً عظيماً ، وسميت « الفتوى الحموية الكبرى » لتمييز عن أختها السابقة التى عرفت فيما بعد باسم « الفتوى الحموية الصغرى » .

وقد ترجمت هذه الفتوى الكبرى باللغة الأوردية وطبعت مع أصلها في بلدة (لابنور) بالهند سنة ١٢٩١ بأمر العلامة صديق حسن خان ملك بهوبال ، ثم طبعت في بلدة (امر تسر) بالهند سنة ١٣٢٢ بنفقة أمير قطر يومئذ الشيخ قاسم بن محمد ابن ثان ضمن مجموعة بمطبعة القرآن والسنة . وفي السنة التالية ١٣٢٣ طبعت في مصر ضمن مجموعة أيضاً ، ثم طبعتها مطبعتنا السلفية (فرع مكة) سنة ١٣٥١ بعناية صديقنا العلامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، ثم في مطبعة دار المعارف بالقاهرة بعناية العلامة للشيخ أحمد شاکر سنة ١٣٧٣ ، وما زال يتكرر طبعها إلى الآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سئل شيخ الإسلام العالم الرباني تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام رحمه الله تعالى ، وذلك في سنة ثمان وتسعين وستمائة ، وجرى بسبب هذا الجواب أمور ونحن (١) ، وهو جواب عظیم النفع جداً ، فقال السائل :

ما قول السادة الفقهاء أئمة الدين في آيات الصفات كقوله تعالى [في سورة طه الآية ٥] : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وقوله [يونس ٣ ، الرعد ٢ ، الفرقان ٥٩ ، السجدة ٤ ، الحديد ٤] : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ وقوله [فصلت ١١] : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ إلى غير ذلك من الآيات ، وأحاديث الصفات كقوله صلى الله عليه وسلم « إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن » وقوله « يضع الجبار قدمه في النار » إلى غير ذلك وما قالت العلماء فيه . وأبسطوا القول في ذلك مأجورين إن شاء الله تعالى . فأجاب :

الحمد لله رب العالمين . قولنا فيها ما قال الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، وهذا هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وغيره (٢) ، فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، وشهد له بأنه بعثه داعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً وأمره أن يقول [يوسف ١٠٨] ﴿ هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ . فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير — الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ، وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وأمر الناس أن يردوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة ، وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه

(١) أشار إلى بعضها تلميذه الحافظ ابن كثير في تاريخه « البداية والنهاية » ١٤ : ٤

(٢) لأنه من علم الغيب ، والله لم يكلف عقول الإنسانية ما لا طاقة لها بمعرفته من ذلك ، لأن الإسلام يقرر أنه لا يعلم الغيب إلا الله

على بصيرة . وقد أخبر الله بأنه أكمل له ولأمته دينهم وأتم عليهم نعمته — محال مع هذا وغيره أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبساً مشتبهاً ، ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا وما يجوز وما يمتنع عليه ، فإن معرفة هذا أصل الدين ، وأساس الهداية ، وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدرسته العقول ، فكيف يكون ذلك الكتاب ، وذلك الرسول ، وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يحكموا هذا الباب اعتقاداً وقولاً ؟

ومن المحال أيضاً أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد علم أمته كل شيء حتى الخراءة (٢) وقال « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » . وقال فيما صح عنه أيضاً « ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم . وقال أبو ذر « لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً » . وقال عمر بن الخطاب « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً فذكر بدء الخلق ، حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه » رواه البخارى .

ومحال — مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين وإن دقت — أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين الذى معرفته غاية المعارف ، وعبادته أشرف المقاصد ، والوصول إليه غاية المطالب ، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية ، فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التام ؟ ثم إذا كان قد وقع ذلك منه فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصرها في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه .

ثم من المحال أيضاً أن تكون القرون الفاضلة — القرن الذى بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم — كانوا غير عالمين ، وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين . لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول ، وإما اعتقاد نقيض الحق ، وقول خلاف الصدق ، وكلاهما ممتنع : أما الأول فلأن من في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم أو نهمة في العبادة يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه ومعرفة الحق فيه أكبر

(١) أى أدب التخل ، يشير إلى حديث سلمان فى صحيح مسلم ومسنده أحمد

مقاصده وأعظم مطالبه ، أعنى بيان ما ينبغي اعتقاده ، لا معرفة « كيفية » الرب وصفاته ، وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر . وهذا أمر معلوم بالفطرة الوجدانية ، فكيف يتصور - مع قيام هذا المقتضى الذى هو من أقوى المقتضيات - أن يتخلف عنه مقتضاه فى أولئك السادة فى مجموع عصورهم هذا لا يكاد يقع فى أبلد الخلق ، وأشدهم إعراضاً عن الله ، وأعظمهم انكباباً (١) على طلب الدنيا والغفلة عن ذكر الله ، فكيف يقع فى أولئك ؟ وأما كونهم كانوا معتقدين فيه غير الحق أو قائلين بهذا لا يعتقده مسلم ولا عاقل عرف حال القوم .

ثم الكلام فى هذا الباب عنهم أكثر من أن يمكن سطره فى هذه الفتوى وأضعافها ، يعرف ذلك من طلبه وتبعه . ولا يجوز أيضاً أن يكون الخالفون أعلم من السالفين كما قد يقول بعض الأغبياء ممن لا يعرف قدر السلف ، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها ، من أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم ، وإن كانت هذه العبارة إذا صدرت من بعض العلماء قد يعنى بها معنى صحيحاً ، فإن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حدا حذوهم على طريقة السلف إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هى مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك ، بمنزلة الأमीين الذين قال الله فيهم [آل عمران ٧٨] : ﴿ ومنهم أमीون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ﴾ وإن طريقة الخلف هى استخراج معانى النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات (٢) وغرائب اللغات ، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالات التى مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر . وقد كذبوا على طريقة السلف وضلوا فى تصويب طريقة الخلف . فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف فى الكذب عليهم ، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف . وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس فى نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة التى شاركوا فيها إخوانهم من الكافرين ، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات فى نفس الأمر - وكان مع ذلك لا بد للنصوص من معنى - بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى ، وهى التى يسمونها طريقة السلف ، وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع تكلف ، وهى التى يسمونها طريقة الخلف ، فصار هذا الباطل مركباً من فساد العقل والكفر بالسمع ، فإن النقي إنما اعتمدوا فيه على أمور

(١) فى نسخة : لإكبابا

(٢) فى نسخة : المجازات

عقلية ظنوها بينات وهى شبهات ، والسمع حرفوا فيه الكلام عن مواضعه ، فلما انبنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكفريتين الكاذبتين كانت النتيجة استجهال السابقين الأولين واستبلاهمهم ، واعتقاد أنهم كانوا قوماً أمينين بمنزلة الصالحين من العامة لم يتبحروا في حقائق العلم بالله ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي ، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله .

ثم هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة ، بل في غاية الضلالة ، كيف يكون هؤلاء المتأخرين - لاسيما والإشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين الذين كثر في باب الدين اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة الله حجابهم ، وأخبر الواقف على نهاية إقدامهم (١) بما انتهى إليه أمرهم :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلى واضعاً كيف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم
وأقروا على أنفسهم بما قالوا متمثلين به ، أو منشئين له ، فيما صنفوه من كتبهم ، كقول بعض رؤسائهم (٢) :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسوننا وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عديلاً ، ولا تروى غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات [طه ٥] : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ، [فاطر ١٠] : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ ، وأقرأ في النفي [الشورى ١١] : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، [طه ١١٠] : ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ . ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

ويقول الآخر منهم (٣) : لقد خضت البحر الحضم ، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه ، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان ، وها أنا أموت على عقيدة أمي .

(١) هو الشهرستاني كما ذكره المؤلف في كتاب العقل والنقل

(٢) هو الفخر الرازي في كتابه « أقسام الذات » الذي صنفه في آخر عمره

(٣) هو إمام الحرمين أبو المعالي الجويني

ويقول الآخر منهم : أكثر الناس شكاً عند الموت أصحاب الكلام .

ثم هؤلاء المتكلمون المخالفون للسلف إذا حقق عليهم الأمر لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خير ، ولا وقعوا من ذلك على عين ولا أثر . كيف يكون هؤلاء المحجوبون المفضولون المسبوقون الحيارى المهوكون أعلم بالله وأسمائه ، وأحكم في باب ذاته وآياته ، من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل وأعلام الهدى ومصابيح الدجى ، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء فضلاً عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم ، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة ؟

ثم كيف يكون خير قرون الأمة أنقص في العلم والحكمة — لا سيما العلم بالله وأحكام أسمائه وآياته — من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم ؟ أم كيف يكون أفرأخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان وورثة المجوس والمشركين وضلال اليهود والنصارى والصابئين وأشكالهم وأشباههم أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان ؟

وإنما قدمت هذه المقدمة لأن من استقرت هذه المقدمة عنده عرف طريق الهدى أين هو في هذا الباب وغيره . وعلم أن الضلال والتهوك إنما استولى على كثير من المتأخرين بنبيذهم كتاب الله وراء ظهورهم ، وإعراضهم عما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من البينات والهدى ، وتركهم البحث عن طريقة السابقين والتابعين ، والتماسهم علم معرفة الله ممن لم يعرف الله بإقراره على نفسه ، وبشهادة الأمة على ذلك ، وبدلالات كثيرة . وليس غرضي واحداً معيناً ، وإنما أصف نوع هؤلاء ، وإذا كان كذلك فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أولها إلى آخرها ، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين ، ثم كلام سائر الأئمة ، مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى هو العلى الأعلى ، وهو فوق كل شيء ، وهو عال على كل شيء وأنه فوق العرش ، وأنه فوق السماء مثل قوله تعالى [فاطر ١٠] : ﴿ إِلَهِهُ يَصْعَدُ الْكَلَمُ الطَّيِّبُ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ، [آل عمران ٥٥] : ﴿ إِنِّي مَتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ ، [الملك ١٥ - ١٦] : ﴿ أَمُنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ، أَمْ أَمُنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ ، [النساء ١٥٨] : ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾

[المعارج ٤]: ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ ، [السجدة ٥]: ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ ، [النحل ٥٠]: ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ ، [يونس ٣ ، الرعد ٢ ، الفرقان ٥٩ ، السجدة ٤ ، الحديد ٤]: ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ في خمسة مواضع ، [طه ٥]: ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ، [غافر ٣٦-٣٧]: ﴿ يا هامان ابن لي صرحاً لعلی أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾ ، [فصلت ٤٢]: ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ ، [الأنعام ١١٤]: ﴿ منزل من ربك ﴾ إلى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى إلا بالكلفة ، وفي الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصى إلا بالكلفة ، مثل قصة معراج الرسول إلى ربه ، ونزول الملائكة من عند الله ، وصعودها إليه ، وقوله في الملائكة الذين يتعاقبون فيكم بالليل والنهار ، فيعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم ، فيسألهم وهو أعلم بهم ، وفي الصحيح في حديث الخوارج « ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً » وفي حديث الرقية الذي رواه أبو داود وغيره « ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك ، أمرك في السماء والأرض ، كما رحمتك في السماء ، اجعل رحمتك في الأرض ، اغفر لنا حوبنا وخطايانا ، أنت رب الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع » قال صلى الله عليه وسلم « إذا اشتكى أحد منكم أو اشتكى أخ له فليقل : ربنا الله الذي في السماء » وذكره . وقوله في حديث الأوعال « والعرش فوق ذلك ، والله فوق عرشه ، وهو يعلم ما أنتم عليه » رواه أحمد وأبو داود وغيرهما ، وقوله في الحديث الصحيح للحجارية « أين الله ؟ قالت : في السماء . قال : من أنا قالت : أنت رسول الله . قال : أعتقها فإنها مؤمنة » وقوله في الحديث الصحيح « إن الله لما خلق الخلق كتب في كتاب موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي » ، وقوله في حديث قبض الروح « حتى يعرج به إلى السماء التي فيها الله » .

وقول عبد الله بن رواحة الذي أنشده للنبي صلى الله عليه وسلم وأقره عليه :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

وقول أمية بن أبي الصلت الثقفى الذي أنشد للنبي صلى الله عليه وسلم هو وغيره من شعره فاستحسنه وقال « آمن شعره ، وكفر قلبه » (١) .

(١) في «أسنى المطالب» : رواه الخطيب ، وهو ضعيف

مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا في السماء أسمى كبراً
بالبناء الأعلى الذي سبق لنا س وسوى فوق السماء سريراً
شرجعاً ما يناله بصر العـ ين ترى دونه الملائك صوراً (١)

وقوله في الحديث الذي في المسند (٢) « إن الله حي كريم ، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً » وقوله في الحديث « يمد يديه إلى السماء يقول : يارب يا رب » (٣) إلى أمثال ذلك مما لا يحصى إلا الله مما هو من أبلغ المتواترات اللفظية والمعنوية التي تورث علماً يقينياً من أبلغ العلوم الضرورية أن الرسول المبلغ عن الله ألقى إلى أمته المدعوين أن الله سبحانه على العرش ، وأنه فوق السماء ، كما فطر الله على ذلك جميع الأمم عربهم وعجمهم في الجاهلية والإسلام ، إلا من اجتالته الشياطين عن فطرته . ثم عن السلف في ذلك من الأقوال ما لو جمع لبلغ مئين أو ألفاً . ثم ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا عن واحد من سلف الأمة لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف حرف واحد يخالف ذلك لا نصاً ولا ظاهراً ، ولم يقل أحد منهم قط أن الله ليس في السماء ، ولا إنه ليس على العرش ، ولا إنه بذاته في كل مكان ، ولا إن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء ، ولا إنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصل ولا منفصل ، ولا إنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه بالأصابع ونحوها ، بل قد ثبت في الصحيح (٤) عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خطب خطبته العظيمة يوم عرفات في أعظم مجمع حضره الرسول صلى الله عليه وسلم جعل يقول « ألا هل بلغت ؟ فيقولون : نعم . فيرفع إصبعه إلى السماء وينكبها إليهم ويقول : اللهم اشهد » غير مرة ، وأمثال ذلك كثير .

فإن كان الحق فيما يقول هؤلاء السالبون النافون للصفات الثابتة في الكتاب والسنة من هذه العبارات ونحوها دون ما يفهم من الكتاب والسنة إما نصاً وإما ظاهراً ، فكيف يجوز على الله ثم على رسوله ثم على خير الأمة أنهم يتكلمون دائماً بما هو نص

(١) شرجعاً : طويلاً . صوراً : جمع أصور ، أي المائل العتق

(٢) في نسخة : السنن (٣) رواه مسلم والترمذي من حديث طويل لأبي هريرة

(٤) يعني صحيح مسلم

أو ظاهر في خلاف الحق ؟ ثم الحق الذى يجب اعتقاده لا يبوحدون به قط ولا يدلون عليه لا نصاً ولا ظاهراً ، حتى يجيء أنباط الفرس والروم وفروخ اليهود والنصارى والفلاسفة يبينون للأمة العقيدة الصحيحة التى يجب على كل مكلف - أو كل فاضل - أن يعتقدوها ؟ لئن كان ما يقوله هؤلاء المتكلمون المتكلفون هو الاعتقاد الواجب ، وهم مع ذلك أحيلوا في معرفته على مجرد عقولهم ، وأن يدفعوا بما اقتضى قياس عقولهم ما دل عليه الكتاب والسنة نصاً ظاهراً ، لقد كان ترك الناس بلا كتاب ولا سنة أهدي لهم وأنفع على هذا التقدير ، بل كان وجود الكتاب والسنة ضرراً محضاً في أصل الدين ، فإن حقيقة الأمر على ما يقوله هؤلاء : إنكم يا معشر العباد لا تطلبوا معرفة الله عز وجل وما يستحقه من الصفات نفيًا وإثباتًا لا من الكتاب ولا من السنة ولا من طريق سلف الأمة ، ولكن انظروا أنتم فما وجدتموه مستحقاً له من الصفات فصفوه به - سواء كان موجوداً في الكتاب والسنة أو لم يكن - وما لم تجدوه مستحقاً له في عقولكم فلا تصفوه به

ثم هم ههنا فريقان : أكثرهم يقولون ما لم تثبت عقولكم فانفوه ، ومنهم من يقول ببل توقفوا فيه ، وما نفاه قياس عقولكم الذى أنتم فيه مختلفون ومضطربون اختلافاً أكثر من أى اختلاف على وجه الأرض فانفوه ، وإليه عند التنازع فارجعوا ، فإنه الحق الذى تعبدتكم به ، وما كان مذكوراً في الكتاب والسنة مما يخالف قياسكم هذا ويثبت ما لم تدركه عقولكم على طريقة أكثرهم فاعلموا أنى أمتحنكم لا لتعلموا بتنزيله ، ولا التأخذوا الهدى منه ، لكن لتجتهدوا في تخريجه على شواذ اللغة ووحشى الألفاظ وغرائب الكلام ، وأن تسكنوا عنه مفوضين علمه إلى الله ، مع نفي دلالة على شيء من الصفات : هذا حقيقة الأمر على رأى هؤلاء المتكلمين . وهذا الكلام قد رأيته صرح بمعناه طائفة منهم ، وهو لازم لجامعهم لزوماً لا محيد عنه ، ومضمونه أن كتاب الله لا يهتدى به في معرفة الله ، وأن الرسول معزول عن التعليم والإخبار بصفات من أرسله ، وأن الناس عند التنازع لا يردون ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول ، بل إلى مثل ما كانوا عليه في الجاهلية ، وإلى مثل ما يتحاكم إليه من لا يؤمن بالأنبياء كالبراهمة والفلاسفة وهم المشركون والمجوس وبعض الصابئين ، وإن كان هذا الرد لا يزيد الأمر إلا شدة ولا يرفع الخلاف به ، إذ لكل فريق طواغيت يريدون أن يتحاكموا إليهم ، وقد أمروا أن

يكفروا بهم . وما أشبه حال هؤلاء المتكلمين بقوله (١) سبحانه وتعالى [النساء : ٦٠-٦٣]
﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ﴾ فإن هؤلاء إذا دعوا إلى ما أنزل الله من الكتاب وإلى الرسول - والدعاء إليه بعد وفاته هو الدعاء إلى سنته - أعرضوا عن ذلك وهم يقولون إنا قصدنا الإحسان علماً وعملاً بهذه الطريق التي سلكناها ، والتوفيق بين الدلائل العقلية والنقلية .

ثم عامة هذه الشبهات التي يسمونها « دلائل » إنما تقلدوا أكثرها عن طاغوت من طواغيت المشركين ، أو الصابئين ، أو بعض ورثتهم الذين أمروا أن يكفروا بهم مثل فلان وفلان أو عمن قال كقولهم لتشابه قلوبهم ، قال الله تعالى [النساء : ٦٥]
﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ [البقرة : ٢١٣] ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأُنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ ، ولازم هذه المقالة أن لا يكون الكتاب هدى للناس ، ولا بياناً ولا شفاء لما في الصدور ، ولا نوراً ، ولا مرداً عند التنازع . لأننا نعلم بالاضطرار أن ما يقول هؤلاء المتكلفون أنه الحق الذي يجب اعتقاده ، لم يدل عليه الكتاب والسنة لا نصاً ولا ظاهراً ، وإنما غاية المتحذلق أن يستنتج هذا من قوله [في سورة الإخلاص] : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ، و [مريم ٦٥] : ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ وبالاضطرار يعلم كل عاقل أن من دل الخلق على أن الله ليس على العرش ، ولا فوق السماوات ونحو ذلك بقوله ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ لقد أبعد النجعة ، وهو إما ملغز وإما مدلس ، لم يخاطبهم بلسان عربي مبين ، ولازم هذه المقالة أن يكون ترك الناس بلا رسالة خيراً لهم في أصل دينهم ، لأن مردهم قبل الرسالة وبعدها واحد ، وإنما الرسالة زادتهم عمى وضلالة .

يا سبحان الله كيف لم يقل الرسول يوماً من الدهر - ولا أحد من سلف الأمة - هذه الآيات والأحاديث لا تعتقدوا ما دلت عليه ، ولكن اعتقدوا الذى تقتضيه مقاييسكم ، واعتقدوا كذا وكذا ، فإنه الحق ، وما خالف ظاهره فلا تعتقدوا ظاهره ، وانظروا فيها ، فما وافق قياس عقولكم فاعتقدوه ، وما لا يوافق فتوقفوا فيه أو انفوه ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبر بأن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، فقد علم ما سيكون ، ثم قال « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله » وروى عنه أنه قال فى صفة الفرقة الناجية « هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » فهلا قال : من تمسك بالقرآن أو بدلالة القرآن أو بمفهوم القرآن أو بظاهر القرآن فى باب الاعتقادات فهو ضال ، وإنما الهدى رجوعكم إلى مقاييس عقولكم ، وما يحدثه المتكلمون منكم بعد القرون الثلاثة فى هذه المقالة ، وإن كان قد نبغ أصلها فى أواخر عصر التابعين .

ثم أصل هذه المقالة - التعطيل للصفات - إنما هو مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين ، وضلال الصابئين ، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة فى الإسلام - أعنى أن الله سبحانه وتعالى ليس على العرش حقيقة وإنما استوى بمعنى استولى ونحو ذلك - أول ما ظهرت هذه المقالة من جعد بن درهم ، وأخذها عنه الجهم ابن صفوان وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه ، وقد قيل : إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سميان ، وأخذها أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم ، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم واليهودى الساحر الذى سحر النبي صلى الله عليه وسلم . وكان الجعد بن درهم هذا - فيما قيل - من أرض حران ، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا دين أهل نمروود والكنعانيين الذين صنف بعض المتأخرين فى سحرهم ، ونمرود هو ملك الصابئة الكلدانية المشركين ، كما أن كسرى ملك الفرس والمجوس ، وفرعون ملك مصر ، والنجاشى ملك الحبشة النصراني ، فهذا اسم جنس لا اسم علم .

فكانت الصابئة - إلا قليلا منهم - إذ ذاك على الشرك ، وعلمائهم هم الفلاسفة وإن كان الصابئ قد لا يكون مشركاً بل مؤمناً بالله واليوم الآخر كما قال تعالى [البقرة ٦٢] : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وقال

[المائدة ٦٩] : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ لكن كثيراً منهم أو أكثرهم كانوا كفاراً أو مشركين كما أن كثيراً من اليهود والنصارى بدلوا وحرفوا وصاروا كفاراً ومشركين ، فأولئك الصابئون الذين كانوا إذ ذاك كانوا كفاراً أو مشركين ، وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل .

ومذهب النفاة من هؤلاء في الرب سبحانه أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية أو مركبة منها ، وهم الذين بعث إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم إليهم ، فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة والفلاسفة ، وكذلك أبو نصر الفارابي دخل حران وأخذ عن فلاسفة الصابئين تمام فلسفته ، وأخذها الجهم أيضاً — فيما ذكره الإمام أحمد وغيره لما ناظر السمنية بعض فلاسفة الهند — وهم الذين يتحدثون من العلوم ما سوى الحسيات — فهذه أسانيد جهم ترجع إلى اليهود والصابئين والمشركين ، والفلاسفة الضالون هم إما من الصابئين وإما من المشركين .

ثم لما عُرِبَت الكتب الرومية واليونانية في حدود المائة الثانية زاد البلاء ، مع ما ألقى الشيطان في قلوب الضلال ابتداءً من جنس ما ألقاه في قلوب أشباههم . ولما كان في حدود المائة الثالثة انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته ، وكلام الأئمة — مثل مالك وسفيان بن عيينة وابن المبارك وأبي يوسف والشافعي وأحمد وإسحاق والفضيل بن عياض وبشر الحافي وغيرهم — كثير في ذمهم وتضليلهم .

وهذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدي الناس — مثل أكثر التأويلات التي ذكرها أبو بكر بن فورك في « كتاب التأويلات » ، وذكرها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي في كتابه الذي سماه « تأسيس التقديس » ، ويوجد كثير منها في كلام خلق كثير غير هؤلاء مثل أبي علي الجبائي وعبد الجبار بن أحمد الهمداني وأبي الحسين البصري وأبي الوفاء بن عقيل وأبي حامد الغزالي وغيرهم — هي بعينها تأويلات بشر المريسي التي ذكرها في كتابه ، وإن كان قد يوجد في كلام بعض هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضاً ، ولهم كلام حسن في أشياء . فلنما بينت أن عين تأويلاتهم هي عين تأويلات المريسي ، ويدل على ذلك كتاب الرد الذي صنفه عثمان بن سعيد الدارمي أحد الأئمة

المشاهير في زمان البخارى صنف كتاباً وسماه (نقض عثمان بن سعيد على الكاذب العنيد فيما افترى على الله من التوحيد) حكى فيه هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسي بكلام يقتضى أن المريسي أقعد بها وأعلم بالمنقول والمعقول من المتأخرين الذين اتصلت إليهم جهته وجهة غيره ، ثم رد ذلك عثمان بن سعيد بكلام إذا طالعه العاقل الذكى علم حقيقة ما كان عليه السلف ، وتبين له ظهور الحجة لطريقهم ، وضعف حجة من خالفهم ثم إذا رأى الأئمة - أئمة الهدى - قد أجمعوا على ذم المريسية وأكثرهم كفروهم أو ضللوهم ، وعلم أن هذا القول السارى في هؤلاء المتأخرين هو مذهب المريسي ، تبين الهدى لمن يريد الله هدايته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . والفتوى لا تحتل البسط في هذا الباب ، وإنما أشير إشارة إلى مبادئ الأمور ، والعاقل يسبر وينظر .

وكلام السلف في هذا الباب موجود في كتب كثيرة لا يمكن أن نذكر ههنا إلا قليلا منه ، مثل كتاب السنن للالكائى ، والإبانة لابن بطة ، والسنة لأبى ذر الهروى ، والأصول لأبى عمر الطلمنكى ، وكلام أبى عمر بن عبد البر ، والأسماء والصفات للبيهقى ، وقبل ذلك السنة للطبرانى ولأبى الشيخ الأصبهاني ، ولأبى عبد الله بن منده ، ولأبى أحمد العسال الأصبهانيين ، وقبل ذلك السنة للخلال ، والتوحيد لابن خزيمة ، وكلام أبى العباس بن سريج ، والرد على الجهمية لجماعة مثل البخارى ، وشيخه عبد الله بن محمد ابن محمد بن عبد الله الجعفى ، وقبل ذلك السنة لعبد الله بن أحمد ، والسنة لأبى بكر ابن الأثرم ، والسنة لحنبل ، وللمروذى ، ولأبى داود السجستانى ، ولابن أبى شيبه ، والسنة لأبى بكر بن أبى عاصم ، وكتاب خلق أفعال العباد للبخارى ، وكتاب الرد على الجهمية لعثمان بن سعيد الدارمى وغيرهم ، وكلام أبى العباس عبد العزيز المكى صاحب الحيدة فى الرد على الجهمية ، وكلام نعيم بن حماد الخزاعى ، وكلام غيرهم . وكلام الإمام أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، ويحيى بن سعيد ، ويحيى بن يحيى النيسابورى (١) وأمثالهم . وقبل ذلك لعبد الله بن المبارك وأمثاله (٢) ، وأشياء كثيرة .

(١) يحيى بن يحيى بن بكير بن عبد الرحمن بن يحيى الحنظلى التميمى ولاء أو نسباً الحافظ أحد الأئمة . قال إسحق ما رأيت مثله ولا رأى مثل نفسه هو أثبت من ابن المهدي . مات يوم مات وهو أمام الدنيا . قال النسائى مات الثقة المأمون سنة ٢٢٦ هـ . خلاصة

(٢) أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلى ولاء المروذى أحد الأئمة الأعلام وشيوخ الإسلام . قال ابن عينة : ابن المبارك عالم المشرق والمغرب وما بينهما . وقال شعبة : ما قدم علينا مثله . ولد سنة ١١٨ د . ومات سنة ١٨١ هـ . خلاصة

وعندنا من الدلائل السمعية والعقلية ما لا يتسع هذا الموضوع لذكره . وأنا أعلم أن المتكلمين النفاة لهم شبهات موجودة ولكن لا يمكن ذكرها في الفتوى ، فمن نظر فيها وأراد إبانة ما ذكروه من الشبه فإنه يسير (١) :

فإذا كان أصل هذه المقالة — مقالة التعطيل والتأويل — مأخوذاً عن تلامذة المشركين والصابئين واليهود فكيف تطيب نفس مؤمن — بل نفس عاقل — أن يأخذ سبيل هؤلاء المغضوب عليهم أو الضالين ، ويدع سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ؟

فصل

ثم القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما ووصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله . وما وصفه به السابقون الأولون ، لا يتجاوز القرآن والحديث . قال الإمام أحمد رضي الله عنه : لا يوصف الله إلا بما ووصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا يتجاوز القرآن والحديث . ومذهب السلف أنهم يصفون الله بما ووصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل . ونعلم أن ما ووصف الله به نفسه من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي ، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه — لا سيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول ، وأفصح الخلق في بيان العلم ، وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد . وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء ، لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ، ولا في أفعاله . فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة ، وله أفعال حقيقة ، فكذلك له صفات حقيقة ، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ، ولا في صفاته ،

(١) قال الذهبي في ترجمة علي بن عبيد الله أبي الحسن الزعفراني الفقيه الحنبلي : له تصانيف فيها أشياء من بحوث المعزلة يدعوه بها لكونه نصرها ، وما هذا من خصائصه بل قل من أمعن النظر في الكلام إلا وأداه إلى ذلك ، فإن علم الكلام مولد من علم الحكماء الدهرية . فن رام الجمع بين علم الأنبياء عليهم السلام وبين علم الفلاسفة بذكائه فلا بد أن يخالف هؤلاء وهؤلاء ، ومن كف ومشى خلف ما جاءت به الرسل من إطلاق ما أطلقوا ولم يتحذلق ولا عمق — فإنهم صلوات الله عليهم أطلقوا وما عمقوا — فقد سلك طريق السلف الصالح ، وسلم له دينه ودينه . فسأل الله السلامة في الدين . اهـ .

ولا في أفعاله . فكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإن الله منزّه عنه حقيقة . فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه ، ويمتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه ، واستلزام الحدوث سابقة العدم ، ولافتقار الحدث إلى محدث ، ولوجوب وجوده بنفسه سبحانه وتعالى .

ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل : فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ، ولا ينمون عنه ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، فيعطلوا أسماء الحسنى وصفاته العليا ، ويحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويلحدوا في أسماء الله وآياته .

وكل واحد من فريق التعطيل والتمثيل فهو جامع بين التعطيل والتمثيل : أما المعطلون فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالخلق ، ثم شرعوا في نفي تلك المفاهيم ، فقد جمعوا بين التعطيل والتمثيل : مثلاً أولاً ، وعطلوا آخراً ، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم ، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله سبحانه وتعالى ، فإنه إذا قال القائل : لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساوياً ، وكل ذلك من الخال . . ونحو ذلك من الكلام فإنه لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأي جسم كان على أي جسم كان ، وهذا اللازم تابع لهذا المفهوم . أما استواء يليق بجلال الله ويختص به فلا يازمه شيء من اللوازم الباطلة التي يجب نفيها كما يازم سائر الأجسام ، وصار هذا مثل قول الممثل : إذا كان للعالم صانع فإما أن يكون جوهرراً أو عرضاً ، إذ لا يعقل موجود إلا هذان . وقوله إذا كان مستوياً على العرش فهو لاستواء الإنسان على السرير والفلك إذ لا يعلم الاستواء إلا هكذا ، فإن كليهما مثل وكليهما عطل حقيقة ما وصف الله به نفسه ، وامتاز الأول بتعطيل كل اسم للاستواء الحقيقي ، وامتاز الثاني بإثبات استواء هو من خصائص المخلوقين . والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط من أن الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ويختص به ، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ونحو ذلك ، ولا يجوز أن يثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقدرتهم ، فكذلك هو سبحانه فوق العرش ولا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق وملزوماتها .

واعلم أنه ليس في العقل الصريح ، ولا في شيء من النقل الصحيح ، ما يوجب مخالفة الطريق السلفية أصلاً ، لكن هذا الموضع لا يتسع للجواب عن الشبهات الواردة على الحق ، فمن كان في قلبه شبهة وأحب حلها فذلك سهل يسير .

ثم المخالفون للكتاب والسنة وسلف الأمة من المتأولين لهذا الباب في أمر مريح فإن من ينكر الرؤية يزعم أن العقل يحيلها وأنه مضطر فيها إلى التأويل ، ومن يحيل أن لله علماً وقدرة وأن يكون كلامه غير مخلوق ونحو ذلك يقول : إن العقل أحال ذلك فاضطر إلى التأويل ، بل من ينكر حقيقة حشر الأجساد والأكل والشرب الحقيقي في الجنة يزعم أن العقل أحال ذلك وأنه مضطر إلى التأويل ، ومن يزعم أن الله ليس فوق العرش يزعم أن العقل أحال ذلك وأنه مضطر إلى التأويل . ويكفيك دليلاً على فساد قول هؤلاء أنه ليس لواحد منهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل ، بل منهم من يزعم أن العقل جوز وأوجب ما يدعى الآخر أن العقل أحاله ، ياليت شعري بأي عقل يوزن الكتاب والسنة ؟ فرضى الله عن الإمام مالك بن أنس حيث قال : « أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم لجدل هؤلاء ؟ وكل من هؤلاء مخصوم بما خصم به الآخر ، وهو من وجوه : (أحدها) بيان أن العقل لا يحيل ذلك . و (الثاني) أن النصوص الواردة لا تحتل التأويل . و (الثالث) أن عامة هذه الأمور قد علم أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بها بالاضطرار ، كما أنه جاء بصلاة الخمس وصوم شهر رمضان . فالتأويل الذي يحيلها عن هذا بمنزلة تأويل القرامطة والباطنية في الحج والصلاة والصوم وسائر ما جاءت به النبوات . (الرابع) أن يبين أن العقل الصريح يوافق ما جاءت به النصوص ، وإن كان في النصوص من التفصيل ما يعجز العقل عن درك التفصيل وإنما يعلمه مجملاً ، إلى غير ذلك من الوجوه على أن الأساطين من هؤلاء الفحول معترفون بأن العقل لا سبيل له إلى اليقين في عامة المطالب الإلهية . فإذا كان هكذا فالواجب تلقى علم ذلك من النبوات على ما هو عليه .

* * *

ومن المعلوم للمؤمنين أن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ، وأنه بين للناس ما أخبرهم به من أمور الإيمان بالله واليوم الآخر . والإيمان بالله واليوم الآخر يتضمن الإيمان بالمبدأ والمعاد ،

وهو الإيمان بالخلق والبعث ، كما جمع بينهما في قوله تعالى [البقرة ٨] : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ ، وقال تعالى [لقمان ٢٨] : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ ، وقال تعالى [الروم ٢٧] : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ ، وقد بين الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من الإيمان بالله واليوم الآخر ما هدى الله به عباده ، وكشف به مراده به . ومعلوم للمؤمنين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم من غيره بذلك ، وأنصح من غيره للأمة ، وأفصح من غيره عبارة وبياناً ، بل هو أعلم الخلق بذلك وأنصح الخلق للأمة وأفصحهم ، فقد اجتمع في حقه كمال العلم والقدرة والإرادة . ومعلوم أن المتكلم أو الفاعل إذا كمل علمه وقدرته وإرادته كمل كلامه وفعله ، وإنما يدخل النقص إما من نقص علمه ، وإما من عجزه عن بيان علمه ، وإما لعدم إرادته البيان . والرسول هو الغاية في كمال العلم ، والغاية في كمال إرادة البلاغ المبين ، والغاية في قدرته على البلاغ المبين . ومع وجود القدرة التامة والإرادة الجازمة يجب وجود المراد ، فلم قطعاً أن ما بينه من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر حصل به مراده من البيان ، وما أراده من البيان فهو مطابق لعلمه ، وعلمه بذلك أكمل العلوم ، فكل من ظن أن غير الرسول أعلم بهذا منه ، وأكمل بياناً منه ، أو أحرص على هدى الخلق منه ، فهو من الملحدين ، لا من المؤمنين .

آخر مقدر

والصحابة التابعون لهم بإحسان ومن سلك سبيلهم في هذا الباب على سبيل الاستقامة . وأما المنحرفون عن طريقهم فهم ثلاث طوائف : أهل التخيل ، وأهل التأويل ، وأهل التجهيل .

فأهل التخيل : هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من متكلم ومتصوف ومتفقه ، فإنهم يقولون : إن ما ذكر الرسول من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخيل للحقائق لينتفع به الجمهور ، لا أنه بين به الحق ، ولا هدى به الخلق ، ولا أوضح به الحقائق . ثم هم على قسمين : منهم من يقول : إن الرسول لم يعلم الحقائق على ما هي عليه ، ويقولون : إن من المتفلسفة الإلهية من علمها ، وكذلك من الأشخاص الذين يسمونهم الأولياء من علمها ، ويزعمون أن من الفلاسفة والأولياء من هو أعلم بالله واليوم الآخر من المرسلين ، وهذه مقالة غلاة الملحدين من الفلاسفة والباطنية : باطنية الشيعة وباطنية الصوفية . ومنهم من يقول : بل الرسول علمها لكن لم يبينها ، وإنما

تكلم بما يناقضها ، وأراد من الخلق فهم ما يناقضها ، لأن مصلحة الخلق في هذه الاعتقادات التي لا تطابق الحق . ويقول هؤلاء : يجب على الرسول أن يدعو الناس إلى اعتقاد التجسيم مع أنه باطل ، وإلى اعتقاد معاد الأبدان مع أنه باطل ، ويخبرهم بأن أهل الجنة يأكلون ويشربون مع أن ذلك باطل . قالوا : لأنه لا يمكن دعوة الخلق إلا بهذه الطريق التي تتضمن الكذب لمصلحة العباد ! فهذا قول هؤلاء في نصوص الإيمان بالله واليوم الآخر ، وأما الأعمال فمنهم من يقرها . ومنهم من يجريها هذا الجري . ويقول : إنما يؤمر بها بعض الناس دون بعض ، ويؤمر بها العامة دون الخاصة (١) . فهذه طريقة الباطنية الملاحدة الإسماعيلية (٢) ونحوهم .

وأما أهل التأويل فيقولون : إن النصوص الواردة في الصفات لم يقصد بها الرسول أن يعتقد الناس الباطل ، ولكن قصد بها معاني ، ولم يبين لهم تلك المعاني ، ولا دهم عليها ، ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولها ، ومقصوده امتحانهم وتكليفهم وإتباع أذهانهم وعقولهم في أن يصرفوا كلامه عن مدلوله ومقتضاه ، ويعرف الحق من غير جهته ، وهذا قول المتكلمة والجهمية والمعتزلة ومن دخل معهم في شيء من ذلك .

والذين قصدنا الرد في هذه الفتيا عليهم هم هؤلاء ، إذ كان نفور الناس عن الأولين مشهوراً ، بخلاف هؤلاء فإنهم تظاهروا بنصر السنة في مواضع كثيرة ، وهم في الحقيقة لا للإسلام نصر ، ولا للفلاسفة كسروا . لكن أولئك الملاحدة ألزموهم في النصوص نصوص المعاد - نظير ما ادعوه في نصوص الصفات ، فقالوا لهم : نحن نعلم بالاضطرار أن الرسول جاء بمعاد الأبدان ، وقد علمنا فساد الشبهة المانعة منه . وأهل السنة يقولون هؤلاء : ونحن نعلم بالاضطرار أن الرسل جاءت بإثبات الصفات ، ونصوص الصفات في الكتب الإلهية أكثر وأعظم من نصوص المعاد . ويقولون لهم : معلوم أن مشركي العرب وغيرهم كانوا ينكرون المعاد ، وقد أنكروه على الرسول وناظروه عليه ، بخلاف

(١) ومن ذلك قول فريد وجدي في كتابه (الإسلام دين عام خالد) : « الدين العامة ، لا للعلماء

المتنين »

(٢) هم العبيديون الذين تسموا في مصر بالفاطميين ، ومن فروعهم الدروز أتباع الحاكم بأمر الله ،

وإسماعيلية البهرة ، وإسماعيلية أغاخان

الصفات فإنه لم تكن العرب تنكرها ، فعلم أن إقرار العقول بالصفات أعظم من إقرارها بالمعاد ، وأن إنكار المعاد أعظم من إنكار الصفات ، فكيف يجوز مع هذا أن يكون ما أخبر به من الصفات ليس كما أخبر به ، وما أخبر به من المعاد هو على ما أخبر به ؟ وأيضاً فقد علم أنه صلى الله عليه وسلم قد ذم أهل الكتاب على ما حرفوه وبدلوه ، ومعلوم أن التوراة مملوءة من ذكر الصفات ، فلو كان هذا مما بدل وحرف لكان إنكار ذلك عليهم أولى ، فكيف وكانوا إذا ذكروا بين يديه الصفات ضحك تعجباً وتصديقاً لها ، ولم يعبههم قط بما تعيب النفاة لأهل الإثبات على لفظ التجسيم والتشبيه ونحو ذلك ، بل عابهم بقولهم [المائدة ٦٤] : ﴿ يد الله مغلولة ﴾ وقولهم [آل عمران ١٨١] : ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ وقولهم : إنه استراح لما خلق السماوات والأرض ، فقال تعالى [سورة ق ٣٨] : ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ ، والتوراة مملوءة من الصفات المطابقة للصفات المذكورة في القرآن ، فإذا جاز أن نتأول الصفات التي اتفق عليها الكتابان فتأويل المعاد الذي انفرد به أحدهما أولى ، والثاني مما يعلم بالاضطرار من دين الرسول أنه باطل فالأول أولى بالبطالان وأما الصنف الثالث وهم أهل التجهيل فهم كثير من المنتسبين إلى السنة وأتباع السلف ، يقولون : إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعرف معاني ما أنزل الله إليه من آيات الصفات ولا جبريل يعرف معاني الآيات ، ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك : وكذلك قولهم في أحاديث الصفات : إن معناها لا يعلمه إلا الله ، مع أن الرسول تكلم بها ابتداء ، فعلى قولهم تكلم بكلام لا يعرف معناه .

وهؤلاء يظنون أنهم اتبعوا قوله تعالى [آل عمران ٧] : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ فإنه وقف أكثر السلف على قوله ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ وهو وقف صحيح لكن لم يفرقوا بين معنى الكلام وتفسيره ، وبين التأويل الذي انفرد الله تعالى بعلمه وظنوا أن التأويل المذكور في كلام الله تعالى هو التأويل المذكور في كلام المتأخرين وغلطوا في ذلك ، فإن لفظ « التأويل » يراد به ثلاث معان :

فالتأويل - في اصطلاح كثير من المتأخرين - هو صرف اللفظ عن الاحتمال المرجوح لدليل يقترب بذلك ، فلا يكون معنى اللفظ الموافق للدلالة ظاهره تأويلاً على اصطلاح هؤلاء ، وظنوا أن مراد الله تعالى بلفظ التأويل ذلك ، وأن للنصوص تأويلاً يخالف مدلولها لا يعلمه إلا الله ولا يعلمه المتأولون .

ثم كثير من هؤلاء يقولون تجرى على ظاهرها فظاهرها مراد مع قولهم : إن لها تأويلاً بهذا المعنى لا يعلمه إلا الله ، وهذا تناقض وقع فيه كثير من هؤلاء المنتسبين إلى السنة من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم .

والمعنى الثانى أن التأويل هو تفسير الكلام سواء وافق ظاهره أو لم يوافقه ، وهذا هو معنى التأويل فى اصطلاح جمهور المفسرين وغيرهم ، وهذا التأويل يعلمه الراسخون فى العلم ، وهو موافق لوقف من وقف من السلف على قوله [آل عمران ٧] : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ﴾ كما نقل ذلك عن ابن عباس ومجاهد ومحمد بن جعفر بن الزبير ومحمد بن إسحاق وابن قتيبة وغيرهم ، وكلا القولين حق باعتبار كما بسطناه فى موضع آخر ، ولهذا نقل عن ابن عباس هذا وهذا ، وكلاهما حق .

والمعنى الثالث أن التأويل هو الحقيقة التى يثول الكلام إليها وإن وافقت ظاهره ، فتأويل ما أخبر الله به فى الجنة — من الأكل والشرب واللباس والنكاح وقيام الساعة وغير ذلك — هو الحقائق الموجودة أنفسها ، لا ما يتصور من معانيها فى الأذهان ويعبر عنه باللسان ، وهذا هو التأويل فى لغة القرآن كما قال عن يوسف أنه قال [يوسف ١٠٠] : ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً ﴾ ، وقال تعالى [الأعراف ٥٣] : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ وقال تعالى [النساء ٥٩] : ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ . وهذا التأويل هو الذى لا يعلمه إلا الله ، وتأويل الصفات هو الحقيقة التى انفرد الله تعالى بعلمها ، وهو الكيف مجهول : فالاستواء معلوم بعلم معناه ، ويفسر ويترجم بلغة أخرى ، وهو من التأويل الذى يعلمه الراسخون فى العلم ، وأما « كيفية » ذلك الاستواء فهو التأويل الذى لا يعلمه إلا الله تعالى .

وقد روى عن ابن عباس ما ذكره عبد الرزاق وغيره فى تفسيرهم عنه أنه قال « تفسير القرآن على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل ، فمن ادعى علمه فهو كاذب » . وهذا كما قال تعالى [السجدة ١٧] : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ قال النبى صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى : أعددت

تعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ،
وكذلك علم وقت الساعة ونحو ذلك ، فهذا من التأويل الذى لا يعلمه إلا الله تعالى وإن كنا
نفهم معانى ما خوطبنا به ونفهم من الكلام ما قصد إفهامنا إياه ، كما قال تعالى [سورة
محمد ٢٤] : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها ﴾ ٢١ وقال [المؤمنون
٦٨] : ﴿ أفلم يدبروا القول ﴾ فأمر بتدبر القرآن كله لا بتدبر بعضه ، وقال أبو
عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن - عثمان بن عفان ، وعبد الله
ابن مسعود ، وغيرهما - أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات
لا يتجاوزونها حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم
بوالعمل جميعاً . وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس رضى الله عنهما من
مفاتيحه إلى خاتمته ، أقف عند كل آية وأسأل عنها . وقال الشعبي : ما ابتدع أحد بدعة
إلا وفى كتاب الله بيانها . وقال مسروق : ما سئل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه
فى القرآن ، ولكن علمنا قصر عنه . وهذا باب واسع قد بسط فى موضعه .

والمقصود هنا التنبيه على أصول المقالات الفاسدة التى أوجبت الضلالة فى باب
العلم والإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن من جعل الرسول غير عالم
بمعنى القرآن الذى نزل إليه ولا جبريل ، جعله غير عالم بالسمعيات ، ولم يجعل القرآن
هدى ولا بياناً للناس .

ثم هؤلاء ينكرون العقليات فى هذا الباب بالكلية ، فلا يجعلون عند الرسول وأئمة
فى باب معرفة الله عز وجل لا علوماً عقلية ولا سمعية ، وهم شاركوا الملاحدة فى هذا
من وجوه متعددة . وهم مخطئون فيما نسبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى السلف
من الجهل ، كما أخطأ فى ذلك أهل التحريف والتأويلات الفاسدة وسائر أصناف
الملاحدة .

ونحن نذكر - من ألفاظ السلف بأعيانها وألفاظ من نقل مذهبهم إلى غير ذلك
من الوجوه بحسب ما يحتمله هذا الموضع - ما يعلم به مذهبهم : روى أبو بكر البيهقي
فى « الأسماء والصفات » بإسناد صحيح عن الأوزاعي قال : كنا - والتابعون متوافرون -
نقول : إن الله - تعالى ذكره - فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من الصفات ،
وقد حكى الأوزاعي - وهو أحد الأئمة الأربعة فى عصر تابعى التابعين الذين هم :

مالك إمام أهل الحجاز ، والأوزاعي إمام أهل الشام ، والليث إمام أهل مصر ، والثوري إمام أهل العراق - حكى شهرة القول في زمن التابعين بالإيمان بأن الله تعالى فوق العرش وبصفاته السمعية . وإنما قال الأوزاعي هذا بعد ظهور مذهب جهن المنكر لكون الله فوق عرشه النافي لصفاته ، ليعرف الناس أن مذهب السلف كان يخالف هذا . وروى أبو بكر الخلال في « كتاب السنة » عن الأوزاعي قال : سئل مكحول والزهرى عن تفسير الأحاديث فقالا : أمرؤها كما جاءت . وروى أيضاً عن الوليد بن مسلم قال : سألت مالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد والأوزاعي عن الأخبار التي جاءت في الصفات فقالوا : أمرؤها كما جاءت - وفي رواية - قالوا : أمرؤها كما جاءت بلا كيف . وقولهم رضي الله عنهم « أمرؤها كما جاءت » رد على المعطلة ، وقولهم « بلا كيف » رد على الممثلة . والزهرى ومكحول هما أعلم التابعين في زمانهم ، والأربعة الباقون أئمة الدنيا في عصر تابعي التابعين ، ومن طبقته حماد بن زيد وحامد بن سلمة وأمثالهما .

وروى أبو القاسم الأزجى بإسناده عن مطرف بن عبد الله قال : سمعت مالك ابن أنس إذا ذكر عنده من يدفع أحاديث الصفات يقول : قال عمر بن عبد العزيز : سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاية الأمر بعده سنناً الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله . ليس لأحد من خلق الله تغييرها ولا النظر في شيء خالفها ، من اهتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى ، وأصله جهنم وساءت مصيراً .

وروى الخلال بإسناد كلهم أئمة ثقات عن سفيان بن عيينة قال : سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ المبين ، وعلينا التصديق . وهذا الكلام مروى عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة بن أبي عبد الرحمن من غير وجه . ومنها ما رواه أبو الشيخ الأصبهاني وأبو بكر البيهقي عن يحيى قال : كنا عند مالك بن أنس ، فجاء رجل فقال : يا أبا عبد الله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى ؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرخصاء ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا مبتدعاً . فأمر به أن يخرج .

فقول ربعة ومالك « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب » موافق لقول الباقرين « أمرها كما جاءت بلا كيف » فإنما نفوا علم الكيفية ولم ينفوا حقيقة الصفة ، ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لعناه على ما يليق بالله لما قالوا « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول » ولما قالوا « أمرها كما جاءت بلا كيف » فإن الاستواء حينئذ لا يكون معلوماً بل مجهول بمنزلة حروف المعجم . وأيضاً فإنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى ، إنما يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا أثبتت الصفات . وأيضاً فإن من ينفي الصفات الجزئية - أو الصفات مطلقاً - لا يحتاج إلى أن يقول « بلا كيف » فن قال : إن الله ليس على العرش ، لا يحتاج أن يقول : بلا كيف ، فلو كان مذهب السلف نفي الصفات في نفس الأمر لما قالوا بلا كيف . وأيضاً فقولهم « أمرها كما جاءت » يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه ، فإنها جاءت ألفاظ دالة على معاني ، فلو كانت دلالتها منتفية لكان الواجب أن يقال أمروا لفظها مع اعتقاد أن المفهوم منها غير مراد . أو أمروا لفظها مع اعتقاد أن الله لا بوصف بما دلت عليه حقيقة ، وحينئذ تكون قد أمرت كما جاءت ، ولا يقال حينئذ « بلا كيف » ، إذ نفي الكيف عما ليس بثابت لغو من القول .

وروى الأثرم في « السنة » وأبو عبد الله بن بطة في « الإبانة » وأبو عمرو الطلمنكي وغيرهم بإسناد صحيح عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون - وهو أحد أئمة المدينة الثلاثة الذين هم مالك بن أنس وابن الماجشون وابن أبي ذئب - وقد سئل عما جحدت به الجهمية : « أما بعد فقد فهمت ما سألت فيما تتابعت الجهمية ومن خلفها في صفة الرب العظيم الذي فاقت عظمته الوصف والتدبر ، وكلت الألسن عن تفسير صفته ، وانحصرت العقول دون معرفة قدرته ، وردت عظمته العقول فلم تجد مساغاً فرجعت خاسئة وهي حسيرة . وإنما أمروا بالنظر والتفكير ، فيما خلق بالتقدير ، وإنما يقال « كيف » لمن لم يكن مرة ثم كان . فأما الذي لا يحول ولا يزول ولم يزل وليس له مثل ، فإنه لا يعلم كيف هو إلا هو : وكيف يعرف قدر من لم يبدأ ، ومن لا يموت ، ولا يبلى ؟ وكيف يكون لصفته شيء منه حد أو منتهى يعرفه عارف . أو يحد قدره واصف ؟ على أنه الحق المبين لا حق أحق منه ولا شيء أبين منه : الدليل على عجز العقول عن تحقيق صفته عجزها عن تحقيق صفة أصغر خلقه لا تكاد تراه صغراً ،

يحول ويزول ، ولا يرى له سمع ولا بصر ، لما يتقلب به ويحتال من عقله ، أعضل بك وأخفى عليك مما ظهر من سمعه وبصره ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وخالقهم ، وسيد السادة ، وربهم ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

اعرف رحمك الله غناك عن تكلف صفة ما لم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها ، إذا لم تعرف قدر ما وصف فما تكلفك علم ما لم يصف ؟ هل تستدل بذلك على شيء من طاعته ؟ أو تزجر به عن شيء من معصيته ؟ فأما الذي جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقاً وتكلفاً فقد [الأنعام ٧١] : ﴿ استهوته الشياطين في الأرض حيران ﴾ ، فصار يستدل بزعمه على جحد ما وصف به الرب وسمى من نفسه بأن قال : لا بد إن كان له كذا من أن يكون له كذا ، فعصى عن البين بالخي ، فجحد ما سمي الرب من نفسه ، بصمت الرب عما لم يسم منها ، فلم يزل يملئ له الشيطان حتى جحد قول الله عز وجل [الحديد ٢٢ - ٢٣] : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ﴾ فقال : « لا يراه أحد يوم القيامة ، فجحد والله أفضل كرامة الله التي أكرم بها أوليائه يوم القيامة ، من النظر إلى وجهه ، نصرته إياهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، قد قضى أنهم لا يموتون ، فهم بالنظر إليه ينصرون » - إلى أن قال - « وإنما جحد رؤية الله يوم القيامة إقامة للحجة الضالة المضللة ، لأنه قد عرف أنه إذا تجلى لهم يوم القيامة رأوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين وكان له جاحداً ، وقال المسلمون يا رسول الله هل ترى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا . قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا . قال : فإنكم ترون ربكم يومئذ كذلك » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمتلئ النار حتى يضع الجبار فيها قدمه ، فتقول قط قط ، ويزوى بعضها إلى بعض » . وقال لثابت بن قيس « لقد ضحكك الله مما فعلت بضيفك البارحة » وقال فيما بلغنا « إن الله تعالى ليضحك من أزل لكم (١) وقنوطكم وسرعة إجابتكم . فقال له رجل من العرب : إن ربنا ليضحك ؟ قال : نعم . قال : لا نعدم من رب يضحك خيراً » في أشياء لهذا مما لا نحصىه . وقال تعالى ﴿ وهو السميع البصير ﴾ وقال [الطور ٤٨] : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ وقال تعالى

[طه ٢٩] : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ وقال تعالى [ص ٧٥] : ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ وقال تعالى [الزمر ٦٧] : ﴿ والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ فوالله ما دلم على عظم ما وصف به نفسه وما تحيط به قبضته إلا صغر نظيرها منهم عندهم ، إن ذلك الذي ألقى في روعهم وخلق على معرفة قلوبهم ، فما وصف الله من نفسه فسماه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم سميانه كما سماه ، ولم تتكلف منه صفة ما سواه ، لا هذا ولا هذا ، ولا نجحد ما وصف ، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف .

« اعلم رحمك الله أن العصمة في الدين أن تنتهى في الدين حيث انتهى بك ، ولا تجاوز ما قد حد لك ، فإن من قوام الدين معرفة المعروف وإنكار المنكر ، فما بسطت عليه المعرفة وسكنت إليه الأفئدة وذكر أصله في الكتاب والسنة وتوارثت علمه الأمة فلا تخافن في ذكره وصفته من ربك ما وصف من نفسه عيباً ، ولا تكلفن بما وصف لك من ذلك قدراً . وما أنكرته نفسك ولم تجد ذكره في كتاب ربك ولا في حديث عن نبيك من ذكر صفة ربك فلا تكلفن علمه بعقلك ، ولا تصفه بلسانك ، واصمت عنه كما صمت الرب عنه من نفسه ، فإن تكلفك معرفة ما لم يصف من نفسه كإنكارك ما وصف منها ، فكما أعظمت ما جحدته الجاحدون مما وصف من نفسه فكذلك أعظم تكلف ما وصف الواصفون مما لم يصف منها ، فقد - والله عز المسلمون الذين يعرفون المعروف وبمعرفتهم يعرف ، وينكرون المنكر ويإنكارهم ينكر ، يسمعون ما وصف الله به نفسه من هذا في كتابه وما يبلغهم مثله عن نبيه ، فما مرض من ذكر هذا وتسميته قلب مسلم ، ولا تكلف صفة قدره ولا تسمية غيره من الرب مؤمن . وما ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا تكلف صفة قدره ولا تسمية غيره من الرب مؤمن . وما ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سماه من صفة ربه فهو بمنزلة ما سمي ووصف الرب تعالى من نفسه ، والراسخون في العلم ، الواقفون حيث انتهى علمهم ، الواصفون لربهم بما وصف من نفسه ، التاركون لما ترك من ذكرها لا ينكرون صفة ما سمي منها جحداً ، ولا يتكلفون وصفه بما لم يسم تعمقاً ، لأن الحق ترك ما ترك ، وتسمية ما سمي ﴿ ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ [النساء ١١٥] « وهب الله لنا ولكم حكماً ، وألحقنا بالصالحين » .

وهذا كله كلام ابن الماجشون الإمام ، فتدبره وانظر كيف أثبت الصفات ونفى

علم « الكيفية » موافقاً لغيره من الأئمة ، وكيف أنكر على من نفى الصفات بأنه يلزمهم من إثباتها كذا وكذا كما تقوله الجهمية أنه يلزم أن يكون جسماً أو عرضاً فيكون محدثاً .

وفى كتاب « الفقه الأكبر » المشهور عند أصحاب أبي حنيفة الذى روه بإسناد عن أبى مطيع الحكم بن عبد الله البلخى قال : سألت أبا حنيفة عن الفقه الأكبر فقال : لا تكفرن أحداً بذنب ، ولا تنف أحداً به من الإيمان ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولا تتبرأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا توال أحداً دون أحد ، وأن ترد أمر عثمان وعلى إلى الله عز وجل .

قال أبو حنيفة : الفقه الأكبر فى الدين خير من الفقه فى العلم ، ولأن يفقه الرجل كيف يعبد ربه خير له من أن يجمع العلم الكثير . قال أبو مطيع : قلت : أخبرنى عن أفضل الفقه ، قال : تعلم الرجل الإيمان والشرائع والسنن والحدود واختلاف الأئمة — وذكر مسائل الإيمان ، ثم ذكر مسائل القدر والرد على القدرية بكلام حسن ليس هذا موضعه — ثم قال : قلت فما تقول فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيتبعه على ذلك أناس فيخرج على الجماعة ، هل ترى ذلك ؟ قال : لا . قلت ولم ؟ وقد أمر الله ورسوله بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو فريضة واجبة قال : كذلك ، لكن ما يفسدون أكثر مما يصلحون من سفك الدماء واستحلال الحرام . قال — وذكر الكلام فى قتل الخوارج والبيعة إلى أن قال — قال أبو حنيفة عمن قال « لا أعرف ربى فى السماء أم فى الأرض » : فقد كفر لأن الله يقول [طه : ٥] ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وعرشه فوق سبع سموات . قلت : فإن قال إنه على العرش استوى ولكنه يقول لا أدرى العرش فى السماء أم فى الأرض ؟ قال : هو كافر . لأنه أنكر أن يكون فى السماء ، لأنه تعالى فى أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل . وفى لفظ : سألت أبا حنيفة عمن يقول لا أعرف ربى فى السماء أم فى الأرض ؟ قال : قد كفر ، قال : لأن الله يقول ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وعرشه فوق سبع سموات . قال : فإنه يقول على العرش استوى ، ولكن لا يدرى العرش فى الأرض أم فى السماء قال : إذا أنكر أنه فى السماء فقد كفر

فى هذا الكلام المشهور عن أبى حنيفة عند أصحابه أنه كفر الواقف الذى يقول لا أعرف ربى فى السماء أم فى الأرض ، فكيف يكون النافى الجاحد الذى يقول ليس

في السماء ولا في الأرض ؟ واحتج على كفره بقوله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ قال : وعرشه فوق سبع سماوات . وبين بهذا أن قوله تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ بين أن الله فوق السماوات ، فوق العرش ، وأن الاستواء على العرش دل على أن الله نفسه فوق العرش ، ثم إنه أردف ذلك بتكفير من قال إنه على العرش استوى ولكن توقف في كون العرش في السماء أم في الأرض ، قال : لأنه أنكر أنه في السماء ، لأن الله في أعلى عليين ، وإنه يدعى من أعلى لا من أسفل . وهذا تصريح من أبي حنيفة بتكفير من أنكر أن يكون الله في السماء ، واحتج على ذلك بأن الله في أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل . وكل من هاتين الحجتين فطرية عقلية ، فإن القلوب مفطورة على الإقرار بأن الله في العلو ، وعلى أنه يدعى من أعلى لا من أسفل . وقد جاء اللفظ الآخر صريحاً عنه بذلك فقال : إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر . وروى هذا اللفظ بإسناد عنه شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري المروى في كتاب « الفاروق » ، ورواه أيضاً ابن أبي حاتم أن هشام بن عبيد الله الرازي صاحب محمد بن الحسن القاضي الذي حبس رجلاً في التجهم فتاب فجيء به إلى هشام ليطلقه فقال : الحمد لله على التوبة فامتحنه هشام فقال : أنشهد أن الله على عرشه بائن من خلقه ؟ فقال : أشهد أن الله على عرشه ، ولا أدري ما بائن من خلقه . فقال : ردوه إلى الحبس فإنه لم يتب وروى أيضاً عن يحيى بن معاذ الرازي أنه قال : إن الله على العرش ، بائن من الخلق وقد أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً . لا يشك في هذه المقالة إلا جهمي رديء ضليل ، وهالك مرتاب ، يمزج الله بخلقه ويخلط منه الذات بالأقدار والأنتان وروى أيضاً عن ابن المديني لما سئل : ما قول أهل الجماعة ؟ قال : يؤمنون بالرؤية والكلام ، وأن الله فوق السماوات على العرش استوى . فسئل عن قوله [المجادلة : ٧] ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ فقال اقرأ ما قبلها ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ﴾ وروى أيضاً عن أبي عيسى الترمذي قال : هو على العرش كما وصف في كتابه ، وعلمه وقدرته وسلطانه في كل مكان . وروى عن أبي زرعة الرازي أنا لما سئل عن تفسير قوله [طه : ٥] ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ فقال : تفسيره كما تقرأ : هو على العرش ، وعلمه في كل مكان ، ومن قال غير هذا فعليه لعنة الله . وروى أبو القاسم اللالكائي الحافظ الطبري صاحب أبي حامد الاسفرايني في كتابه المشهور في « أصول السنة » بإسناده عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة قال : اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن ، والأحاديث

التي جاء بها الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفة الرب عز وجل ، من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه ، فمن فسر اليوم شيئاً من ذلك فقد خرج عما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وفارق الجماعة ، فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا ، ولكن افتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا ، فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة لأنه قد وصفه بصفة لا شيء .

محمد بن الحسن أخذ عن أبي حنيفة ومالك وطبقتهما من العلماء . وقد حكى هذا الإجماع وأخبر أن الجهمية المعطلة الذين ابتدعوا تفسير الصفات بخلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون من الأثبات .

وروى البيهقي وغيره بإسناد صحيح عن أبي عبيد القاسم بن سلام قال : هذه الأحاديث التي يقول فيها ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب خيره ، وأن جهنم لا تمتلئ حتى يضع ربك فيها قدمه ، والكرسي موضع القدمين ، وهذه الأحاديث في الرؤية ، هي عندنا حق حملها الثقات بعضهم عن بعض ، غير أنا إذا سئلنا عن تفسيرها لا نفسرها ، وما أدركنا أحداً يفسرها .

أبو عبيد أحد الأئمة الأربعة الذين هم الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو عبيد ، وله من المعرفة بالفقه واللغة والتأويل ما هو أشهر من أن يوصف ، وقد كان في الزمان الذي ظهرت فيه الفتن والأهواء ، فقد أخبر أنه ما أدرك أحداً من العلماء يفسرها تفسير الجهمية .

وروى اللالكائي والبيهقي عن عبد الله بن المبارك أن رجلاً قال له : يا أبا عبد الرحمن ، إنني أكره الصفة ، عن صفة الرب . فقال له عبد الله بن المبارك : أنا أشد الناس كراهية لذلك ، ولكن إذا نطق الكتاب بشيء قلنا به ، وإذا جاءت الآثار بشيء جسرنا عليه . أو نحو هذا . أراد ابن المبارك أن نكره أن نبتدئ بوصف الله من ذات أنفسنا حتى يجيء به الكتاب والآثار . وروى عبد الله بن أحمد وغيره بإسناد صحيح عن ابن المبارك أنه قيل له : بماذا نعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق السماوات على عرشه ، بائن من خلقه ، ولا نقول كما تقول الجهمية : إنه ههنا في الأرض . وهكذا قال الإمام أحمد وغيره .

وروى بإسناد صحيح عن سليمان بن حرب الإمام : سمعت حماد بن زيد وذكر هؤلاء الجهمية فقال : إنما يحاولون أن يقولوا ليس في السماء شيء .

وروى ابن أبي حاتم في كتاب « الرد على الجهمية » عن سعيد بن عامر الضبعي إمام أهل البصرة علماً ودينياً من شيوخ الإمام أحمد أنه ذكر عنده الجهمية فقال : أشرف قولا من اليهود والنصارى ، وقد اجتمع اليهود والنصارى وأهل الأديان مع المسلمين على أن الله على العرش ، وقالوا هم : ليس على شيء .

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة إمام الأئمة : من لم يقل إن الله فوق سماواته على عرشه ، بائن من خلقه ، وجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه ثم ألقى على مزبلة لثلاثين يوماً بريحه أهل القبلة ولا أهل الذمة ، ذكره عنه الحاكم بإسناد صحيح .

وروى عبد الله ابن الإمام أحمد بإسناده عن عباد بن العوام الواسطي إمام أهل واسط من طبقة شيوخ الشافعي وأحمد قال : كلمت بشرا المريسي وأصحاب بشر ، فرأيت آخر كلامهم ينتهي أن يقولوا : ليس في السماء شيء .

وعن عبد الرحمن بن مهدي الإمام المشهور أنه قال : ليس في أصحاب الأهواء شر من أصحاب جهنم ، يدورون على أن يقولوا : ليس في السماء شيء ، أرى والله أن لا يناكحوا ولا يوارثوا . وروى عبد الرحمن بن أبي حاتم في كتاب « الرد على الجهمية » عن عبد الرحمن بن مهدي قال : أصحاب جهنم يريدون أن يقولوا : إن الله لم يكلم موسى ، ويريدون أن يقولوا : ليس في السماء شيء ، وأن الله ليس على العرش . أرى أن يستتابوا ، فإن تابوا وإلا قتلوا .

وعن الأصمعي قال : قدمت امرأة جهنم فنزلت بالدباغين ، فقال رجل عندها : الله على عرشه . فقالت : محدود على محدود . وقال الأصمعي : كفرت بهذه المقالة وعن عاصم بن علي بن عاصم شيخ أحمد والبخاري وطبقتهما قال : ناظرت جهمياً ، فتبين من كلامه أنه لا يؤمن أن في السماء رباً .

وروى الإمام أحمد قال : أخبرنا سريج بن نعمان قال : سمعت عبد الله بن نافع الصائغ قال : سمعت مالك بن أنس يقول : الله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو من علمه مكان .

وقال الشافعي : خلافة أبي بكر الصديق حق قضاءه في السماء ، وجمع عليه قلوب عباد الله . وفي الصحيح عن أنس بن مالك قال : كانت زينب تفتخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات . وهذا مثل قول الشافعي .

وقصة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة مشهورة في استنباطه بشر المريسي حتى هرب منه لما أنكر الصفات وأظهر قول جهنم ؛ قد ذكرها ابن أبي حاتم وغيره .
وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (١) الإمام المشهور من أئمة المالكية في كتابه الذي صنفه في « أصول السنة » قال فيه :

باب الإيمان بالعرش

قال : « ومن قول أهل السنة أن الله عز وجل خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق ، ثم استوى عليه كيف شاء كما أخبر عن نفسه في قوله [طه : ٥] ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وقوله [الحديد : ٤] ﴿ استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض ﴾ الآية . فسبحان من بعد وقرب بعلمه فسمع النجوى . وذكر حديث أبي رزين العقيلي « قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض ؟ قال : في عماء ، ما تحته هواء ، وما فوقه هواء . ثم خلق عرشه على الماء » قال محمد : العماء السحاب الكثيف المطبق فيما ذكره الخليل . وذكر آثاراً أخر ثم قال :

باب الإيمان بالكرسی

قال محمد بن عبد الله (١) « ومن قول أهل السنة أن الكرسي بين يدي العرش ، وأنه موضع القدمين » . ثم ذكر حديث أنس الذي فيه التمجلى يوم الجمعة في الآخرة وفيه « فإذا كان يوم الجمعة هبط من عليين على كرسيه ثم يحف الكرسي على منابر من ذهب مكللة بالجواهر ، ثم يجيء النبيون فيجلسون عليها » . وذكر ما ذكره يحيى بن سالم صاحب التفسير المشهور : حدثني العلاء بن هلال عن عمار الدهني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال « إن الكرسي الذي وسع السماوات والأرض لموضع القدمين . ولا يعلم قدر العرش إلا الذي خلقه » . وذكر من حديث أسد بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن زر عن ابن مسعود قال « ما بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام ، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام ، والعرش فوق الماء ، والله فوق العرش ، وهو يعلم ما أنتم عليه » .

(١) محمد بن عبد الله بن أبي زمنين المري الألبيري النرناطي المتوفى سنة ٣٩٩

ثم قال (١) في « باب الإيمان بالحجب » قال : ومن قول أهل السنة إن الله بائن من خلقه ، يحتجب عنهم بالحجب ، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً . وذكر آثاراً في الحجب .

ثم قال في « باب الإيمان بالنزول » قال : ومن قول أهل السنة أن الله ينزل إلى سماء الدنيا ، ويؤمنون بذلك من غير أن يحدوا فيه حداً . وذكر الحديث من طريق مالك وغيره - إلى أن قال - وأخبرني وهب عن ابن وضاح عن الزهري عن ابن عباد قال : ومن أدركت من المشايخ - مالك وسفيان وفضيل بن عياض وعيسى بن المبارك ووكيعة - كانوا يقولون : إن النزول حق ، قال ابن وضاح : وسألت يوسف بن عدي عن النزول قال : نعم أو من به ، ولا أحدث فيه حداً . وسألت عنه ابن معين فقال : نعم . أمر به ولا أحد فيه حداً .

قال محمد (١) : وهذا الحديث يبين أن الله عز وجل على العرش في السماء دون الأرض ، وهو أيضاً بين في كتاب الله وفي غير حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى [السجدة : ٤] ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ وقال تعالى [الملك : ١٥ - ١٦] ﴿ آمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ؟ أم آمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً ﴾ ، وقال تعالى [فاطر : ١٠] ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ ، وقال [الأنعام : ١٨] ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ وقال تعالى [آل عمران : ٥٥] ﴿ يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى ﴾ وقال [النساء : ١٥٨] ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ .

وذكر (١) من طريق مسالك قول النبي صلى الله عليه وسلم للجارية « أين الله ؟ قالت : في السماء . قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله . قال : فأعتقها » قال : والأحاديث مثل هذا كثيرة جداً . فسبحان من علمه بما في السماء كعلمه بما في الأرض ، لا إله إلا هو العلي العظيم .

وقال (١) قبل ذلك في الإيمان بصفات الله تعالى وسماؤه قال « واعلم بأن أهل العلم بالله وبما جاءت به أنبيأؤه ورسله يرون الجهل بما لم يخبر به عن نفسه علماً ، والعجز

(١) أي ابن أبي زمنين

(٢) أي محمد بن عبد الله بن أبي زمنين في كتاب « أصول السنة »

عما يدعو عليه إيماناً ، وإنهم إنما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه إلى حيث أنهى في كتابه على لسان نبيه ، وقد قال وهو أصدق القائلين : [القصص : ٨٨] ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ ، [الأنعام : ١٩] ﴿ كل شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ وقال [آل عمران : ٣٠] : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ وقال [ص : ٨٢] ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ وقال [الطور : ٤٨] ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ وقال [طه : ٣٩] ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ وقال [المائدة : ٦٤] ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يدها مبسوطتان ﴾ وقال [الزمر : ٦٧] ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ الآية ، وقال [طه : ٤٦] ﴿ إني معكما أسمع وأرى ﴾ وقال [النساء : ١٦٤] ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ وقال تعالى [النور : ٣٥] ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ الآية ، وقال [البقرة : ٢٥٥] ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ الآية ، وقال [الحديد : ٣] ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ ، ومثل هذا في القرآن كثير ، فهو تبارك وتعالى نور السماوات والأرض كما أخبر عن نفسه ، وؤه وجه ونفس وغير ذلك مما وصف به نفسه ، ويسمع ويرى ويتكلم ، هو الأول لا شيء قبله ، والآخر الباقي إلى غير نهاية ولا شيء بعده ، والظاهر العالی فوق كل شيء ، والباطن بطن علمه بخلقه فقال [البقرة : ٣٩] : ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ قيوم حتى لا تأخذه سنة ولا نوم .

وذكر (١) أحاديث الصفات ، ثم قال : « فهذه صفات ربنا التي وصف بها نفسه في كتابه ، ووصفه بها نبيه ، وليس في شيء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، لم تره العيون فتحده كيف هو ؟ ولكن رأته القلوب في حقائق الإيمان » اهـ .

وكلام الأئمة في هذا الباب أطول وأكثر من أن تسع هذه الفتيا عشره ؛ وكذلك كلام الناقلين لمذهبهم مثل ما ذكره أبو سليمان الخطابي في رسالته المشهورة في الغنية عن الكلام وأهله قال « فأما ما سألت عنه من الصفات وما جاء منها في الكتاب والسنة فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها ، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبتته الله ، وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكليف ، وإنما القصد في سلوك الطريقة المستقيمة بين الأمرين ، ودين الله تعالى بين الغالي فيه والمقصر عنه ، والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام

فى الذات ، ويحتذى فى ذلك حذوه ومثاله ، فإذا كان معلوماً أن إثبات البارى سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف ، فإذا قلنا يد وسمع وبصر وما أشبهها فإنما هى صفات أثبتها الله لنفسه ، ولسنا نقول : إن معنى اليد القوة والنعمة ، ولا معنى السمع والبصر العلم ؛ ولا نقول إنها جوارح ، ولا نشبهها بالأيدى والأسماع والأبصار التى هى جوارح وأدوات للفعل ، ونقول : إن القول إنما وجب بإثبات الصفات لأن التوقيف ورد بها ، ووجب نفى التشبيه عنها لأن الله ليس كمثل شىء ، وعلى هذا جرى قول السلف فى أحاديث الصفات » . هذا كله كلام الخطابى .

وهكذا قاله أبو بكر الخطيب الحافظ فى رسالة له أخبر فيها أن مذهب السلف على ذلك .

وهذا الكلام الذى ذكره الخطابى قد نقل نحوه من العلماء من لا يحصى عددهم ، مثل أبى بكر الإسماعيلى ، والإمام يحيى بن عمار السجزى ، وشيخ الإسلام أبى إسماعيل الهروى ، ومثل أبى عثمان الصابونى شيخ الإسلام ، وأبى عمر بن عبد البر النمرى إمام المغرب ، وغيرهم .

وقال أبو نعيم الأصبهاني صاحب « الحلية » فى عقيدة له قال فى أولها « طريقتنا طريقة المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة . قال : فما اعتقدوه أن الأحاديث التى ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم فى العرش واستواء الله يقولون بها ويثبتونها ، من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ، وأن الله بأئن من خلقه والخلق بائون منه ، لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم ، وهو مستو على عرشه فى سمائه دون أرضه وخلقه » .

وقال الحافظ أبو نعيم فى كتابه « محجة الواثقين ، ومدرجة الوامقين » تأليفه : « وأجمعوا أن الله فوق سمواته ، عال على عرشه ، مستو عليه ، لا مستول عليه كما تقول الجهمية أنه بكل مكان خلافاً لما نزل فى كتابه [الملك : ١٦] ﴿ ءأمنتم من فى السماء ﴾ ، [فاطر : ١٠] ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ ، [طه : ٥] ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ له العرش المستوى عليه الكرسي الذى وسع السماوات والأرض . وقوله [البقرة : ٢٥٥] ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ﴾ وكرسيه جسم ، والأرضون السبع والسماوات السبع عند الكرسي كحلقة فى أرض فلاة ، وليس كرسيه علمه كما قالت الجهمية ، بل يوضع كرسيه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه كما قال النبي

صلى الله عليه وسلم ، وأنه تعالى وتقدس يحىء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده والملائكة صفاً صفاً كما قال تعالى [الفجر : ٢٢] ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ وزاد النبي صلى الله عليه وسلم : وأنه تعالى وتقدس يحىء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده فيغفر لمن يشاء من مذنبى الموحدين ، ويعذب من يشاء ، كما قال تعالى [البقرة : ١٢٩] ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ .

وقال الإمام العارف معمر بن أحمد الأصهبانى شيخ الصوفية فى حدود المائة الرابعة فى بلاده ، قال « أحببت أن أوصى أصحابى بوصية من السنة وموعظة من الحكمة ، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر بلا كيف ، وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين » ، قال فيها :

« وإن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل ، والاستواء معقول والكيف فيه مجهول . وإنه عز وجل بائن من خلقه والخلق منه بائون ، بلا حلول ولا مازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة ، لأنه الفرد البائن من الخلق ، الواحد الغنى عن الخلق . وإن الله عز وجل سميع بصير ، عليم خبير ، يتكلم ويرضى ويسخط ويضحك ويعجب ، ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكاً .

وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء الله فيقول « هل من داع فاستجب له ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه ؟ حتى يطلع الفجر » . ونزول الرب إلى السماء بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل ، فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال ، وسائر الصفوة من العارفين على هذا » اهـ

وقال الشيخ الإمام أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال فى « كتاب السنة » : حدثنا أبو بكر الأثرم حدثنا إبراهيم بن الحارث - يعنى العبادى - حدثنا الليث بن يحيى قال : سمعت إبراهيم بن الأشعث قال أبو بكر - هو صاحب الفضيل - قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : ليس لنا أن نتوهم فى الله كيف هو ؟ لأن الله تعالى وصف نفسه فأبلغ فقال ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد ﴾ فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه . وكل هذا النزول والضحك وهذه المباهاة وهذا الاطلاع ، كما يشاء أن ينزل ، وكما يشاء أن يباهى ، وكما يشاء أن يضحك ، وكما يشاء أن يطلع ، فليس [لنا] أن نتوهم كيف وكيف ؟ فإذا قال الجهمى أنا أكفر برب يزول عن مكانه ، فقل : بل أو من برب يفعل ما يشاء .

ونقل هذا عن الفضيل جماعة منهم البخارى فى « أفعال العباد » .

ونقله شيخ الإسلام (١) بإسناده فى كتابه « الفاروق » ؛ فقال : حدثنا يحيى بن عمار حدثنا أبى حدثنا يوسف بن يعقوب حدثنا حرمى بن على البخارى وهاتى بن النضر عن الفضيل .

وقال عمرو بن عثمان المكي (٢) فى كتابه الذى سماه « التعرف بأحوال العباد والمتعبدين » قال فى باب ما يحىء به الشيطان للتائبين ، وذكر أنه يوقعهم فى القنوط ، ثم فى الغرور وطول الأمل ، ثم فى التوحيد فقال « من أعظم ما يوسوس فى التوحيد بالتشكيك ، أو فى صفات الرب بالتمثيل والتشبيه أو بالجد لها والتعطيل ، فقال بعد ذكر حديث الوسوسة : « واعلم رحمك الله أن كل ما توهمه قلبك ، أو سنع فى مجارى فكرك ، أو خطر فى معارضات قلبك ، من حسن أو بهاء أو ضياء أو إشراق أو جمال ، أو شبح مائل ، أو شخص متمثل ، فالله تعالى بغير ذلك ، بل هو تعالى أعظم وأجل وأكبر . ألا تسمع لقوله [الشورى : ١١] ﴿ ليس كمثله شئ ﴾ وقوله ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ أى لا شبيه ولا نظير ولا مساوى ولا مثل . أو لم تعلم أنه لما تجلى للجبل تدكدك لعظم هيئته وشامخ سلطانه ، فكما لا يتجلى لشيء إلا اندك ، كذلك لا يتوهمه أحد إلا هلك ، فرد — بما بين الله فى كتابه من نفسه عن نفسه — التشبيه والمثل والنظير والكفو . فإن اعتصمت بها وامتنعت منه أتاك من قبل التعطيل لصفات الرب تعالى وتقدس فى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال لك : إذا كان موصوفاً بكذا أو وصفته أوجب له التشبيه ، فأكذبه ، لأنه اللعين إنما يريد أن يستزلك ويغويك ويدخلك فى صفات الملاحدين الزائغين الجاحدين لصفة الرب تعالى . واعلم رحمك الله تعالى أن الله تعالى واحد لا كالأحاد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

إلى أن قال « خلصت له الأسماء السنية فكانت واقعة فى قديم الأزل بصدق الحقائق ، لم يستحدث تعالى صفة كان منها خليفاً ، ولا اسماً كان منه برياً ، تبارك وتعالى فكان هادياً سيهدى ، وخالقاً سيخلق ، ورازقاً سيرزق ، وغافراً سيغفر ، وفاعلاً سيفعل ، ولم يحدث له الاستواء إلا وقد كان فى صفته أنه سيكون ذلك الفعل ، فهو يسمى به فى جملة فعله ،

(١) هو أبو اسماعيل عبد الله بن محمد الهروى الحنبلى المتوفى سنة ٤٨١ هـ

(٢) من نظراء الجنيد ، كبير القدر ، عده صاحب شذرات الذهب فى وفيات سنة ٢٩٧ هـ وقال :

شيخ الصوفية ، صاحب التصانيف فى الطريق

كذلك قال الله تعالى [الفجر : ٢٢] ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ بمعنى أنه سيجيء ، فلم يستحدث الاسم بالحيى وتخلف الفعل لوقت الحيى ، فهو جاء سيجيء ، ويكون الحيى منه موجوداً بصفة لا تلحقه الكيفية ولا التشبيه ، لأن ذلك فعل الربوبية ، فيستحسر العقل ، وتنقطع النفس عند إرادة الدخول فى تحصيل كيفية المعبود ، فلا تذهب فى أحد الجانبين : لا معطل ، ولا مشبه . وارضى الله بما رضى به لنفسه ، وقف عند خبره لنفسه مسلماً مستسلماً مصداقاً ، بلا مباحثة التنفير ، ولا مناسبة التنفير .

إلى أن قال (١) « فهو تبارك وتعالى القائل : أنا الله لا الشجرة ، الجائى قبل أن يكون جائئاً لا أمره ، المتجلى لأوليائه فى المعاد فتفيض به وجوههم وتفلج به على الجاحدين حججهم ، المستوى على عرشه بعظمة جلاله فوق كل مكان ، تبارك وتعالى الذى كلم موسى تكليماً ، وأراه من آياته ، فسمع موسى كلام الله لأنه قربه نجياً ، تقدر أن يكون كلامه مخلوقاً أو محدثاً أو مربوباً ، الوارث بخلقه لخلقه ، السميع لأصواتهم ، الناظر بعينه إلى أجسامهم ، يداه مبسوطتان وهما غير نعمته . خلق آدم ونفخ فيه من روحه ، وهو أمره : تعالى وتقدس أن يحل بجسم ، أو يمازج بجسم ، أو يلاصق به ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً . الشائى له المشيئة ، العالم له العلم ، الباسط يديه بالرحمة ، النازل كل ليلة إلى سماء الدنيا ليتقرب إليه خلقه بالعبادة ، وليرغبوا إليه بالوسيلة . القريب فى قربه من جبل الوريد ، البعيد فى علوه من كل مكان بعيد . ولا يشبه بالناس » . إلى أن قال ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ القائل [الملك : ١٦] ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ؟ أم أأمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً ؟ تعالى وتقدس أن يكون فى الأرض كما هو فى السماء ، جل عن ذلك علواً كبيراً » اهـ .

وقال الإمام أبو عبد الله الحارث بن إسماعيل بن أسد المحاسبى فى كتابه المسمى « فهم القرآن » قال فى كلامه على الناسخ والمنسوخ : وأن النسخ لا يجوز فى الأخبار قال « لا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله وصفاته ولا أسماءه يجوز أن ينسخ منها شئ » ، إلى أن قال : « وكذلك لا يجوز إذا أخبر أن صفاته حسنة علياً أن يخبر بذلك أنها دنية سفلى ، فيصف نفسه بأنه جاهل ببعض الغيب بعد أن أخبر أنه عالم بالغيب ، وأنه لا يبصر ما قد كان ، ولا يسمع الأصوات ، ولا قدرة له ، ولا يتكلم ولا كلام كان منه .

وأنة تحت الأرض لا على العرش ، جل وعلا عن ذلك : فإذا عرفت ذلك واستيقنته علمت ما يجوز عليه النسخ وما لا يجوز » فإن تلوت آية في ظاهر تلاوتها تحسب أنها ناسخة لبعض أخباره كقوله عن فرعون [يونس : ٩٠] ﴿ فلما أدركه الغرق قال آمنت ﴾ الآيات وقال [سورة محمد : ٣١] ﴿ حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ﴾ وقال : قد تأول قوم أن الله عني أن ينجيه ببدنه من النار لأنه آمن عند الغرق وقال : إنما ذكر الله أن قوم فرعون يدخلون النار دونه ، وقال [هود : ٩٨] ﴿ فأوردهم النار ﴾ وقال [غافر : ٤٥] ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ ولم يقل بفرعون ، قال : وهكذا الكذب على الله لأن الله تعالى يقول [النازعات : ٢٥] ﴿ فأخذ الله نكال الآخرة والأولى ﴾ وكذلك قوله [العنكبوت : ٣] ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا ﴾ فأقر التلاوة على استئناف العلم من الله عز وجل عن أن يستأنف علماً بشيء ، لأنه من ليس له علم بما يريد أن يصنعه لم يقدر أن يصنعه ، نجده ضرورة . قال [الملك : ١٤] ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ قال إنما قوله [محمد : ٣١] ﴿ حتى نعلم المجاهدين ﴾ إنما يريد حتى نراه فيكون معلوماً موجوداً ، لأنه لا جائز أن يكون يعلم الشيء معدوماً من قبل أن يكون ويعلمه موجوداً كان قد كان ، فيعلم في وقت واحد معدوماً موجوداً وإن لم يكن ، وهذا محال .

وذكر — أى الحارث المحاسبى — كلاماً في هذا في الإرادة ، إلى أن قال : « وكذلك قوله [الشعراء : ١٥] ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ ليس معناه أن يحدث له سمعاً ، ولا تكلف بسمع ما كان من قولهم . وقد ذهب قوم من أهل السنة أن الله استماعاً في ذاته فذهبوا إلى أن ما يعقل من أنه يحدث منهم علم سمع لما كان من قول ، لأن المخلوق إذا سمع حدث له عقد فهم عما أدركته أذنه من الصوت ، وكذلك قوله [التوبة : ١٠٥] ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ لا يحدث بصراً محدثاً في ذاته ، وإنما يحدث الشيء فيراه مكوناً كما لم يزل يعلم قبل كونه » إلى أن قال : « وكذلك قوله تعالى [الأنعام : ١٨ و ٦١] ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ وقوله [طه : ٥] ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وقوله [الملك : ١٦] ﴿ ءأمنتم من في السماء ﴾ وقوله [فاطر : ١٠] ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ﴾ ، وقال [السجدة : ٥] ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ وقال [المعارج : ٤] ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ وقال لعيسى [آل عمران : ٥٥] ﴿ إني متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ﴾ الآية وقال [النساء : ١٥٨] ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ وقال [الأعراف : ٢٠٦] ﴿ إن الذين عند ربك

لا يستكبرون عن عبادته ﴿ وذكر الآلهة أن لو كان آلهة لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلاً حيث هو فقال [الإسراء : ٤٢] ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلاً ﴾ أى طلبوه . وقال ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ . قال أبو عبد الله (١) « فلن ينسخ ذلك لهذا أبداً » كذلك قوله [الزخرف : ٨٤] ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ﴾ وقوله [ق : ١٦] ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ وقوله [الأنعام : ٣] ﴿ وهو الله فى السماوات وفى الأرض يعلم سرهم وجهرهم ﴾ وقوله [المجادلة : ٧] ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ الآية ، فليس هذا بناسخ لهذا . ولا هذا ضد لذلك . » واعلم أن هذه الآيات ليس معناها أن الله أراد الكون بذاته فيكون فى أسفل الأشياء أو ينتقل فيها لانتقالها ويتبعض فيها على أقدارها ، ويحول عنها عند فنائها ، جل وعز عن ذلك . وقد نزع بذلك بعض أهل الضلال فرغموا أن الله فى كل مكان بنفسه كائناً كما هو على العرش لا فرقان بين ذلك ، ثم أحالوا فى النفى بعد تثبت ما يجوز عليه فى قولهم ما نفوه ، لأن كل من ثبت شيئاً فى المعنى ثم نفاه بالقول لم يغن عنه نفاه بلسانه ، واحتجوا بهذه الآيات أن الله تعالى فى كل شيء بنفسه كائناً ، ثم نفوا معنى ما أثبتوا فقالوا : لا كالشيء فى الشيء .

« قال أبو عبد الله (١) : لنا قوله ﴿ حتى نعلم ﴾ و ﴿ سيرى الله ﴾ ، ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ فإنما معناه حتى يكون الموجود فيعلمه موجوداً ويسمعه مسموعاً ويبصره مبصراً ، لا على استحداث علم ولا سمع ولا بصر . وأما قوله ﴿ إذا أردنا ﴾ إذا جاء وقت كون المراد فيه ، وإن قوله ﴿ على العرش استوى ﴾ ؛ ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ الآية ، ﴿ وأمنتم من فى السماء ﴾ ، ﴿ إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلاً ﴾ فهذا وغيره مثل قوله ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ ، ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ هذا منقطع يوجب أنه فوق العرش فوق الأشياء كلها منزّه عن الدخول فى خلقه لا يخفى عليه منهم خافية ، لأنه أبان فى هذه الآيات أنه أراد أنه بنفسه فوق عباده لأنه قال ﴿ وأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾ يعنى فوق العرش ، والعرش على السماء ، لأن من قد كان فوق كل شيء على السماء فى السماء ، وقد قال مثل ذلك فى قوله [التوبة : ٢] ﴿ فسيحوا فى الأرض ﴾ يعنى على الأرض لا يريد الدخول فى جوفها ، وكذلك قوله [المائدة : ٢٦] ﴿ يتيهون فى الأرض ﴾ يعنى على الأرض لا يريد الدخول فى جوفها ، وكذلك قوله

[طه : ٧١] ﴿لأصلبنكم في جذوع النخل﴾ يعنى فوقها عليها وقال ﴿وأمنتم من في السماء﴾ ثم فصل فقال ﴿أن يخسف بكم الأرض﴾ ولم يصل ، فلم يكن لذلك معنى إذا فصل قوله ﴿من في السماء﴾ ثم استأنف التخويف بالخسف ، إلا أنه على عرشه فوق السماء . وقال تعالى [السجدة : ٥] ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه﴾ وقال [المعارج : ٤] ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ فبين عروج الأمر وعروج الملائكة ، ثم وصف وقت صعودها بالارتفاع صاعدة إليه فقال ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ فقال صعودها إليه ، وفصله من قوله «إليه» كقول القائل : أصد إلى فلان في ليلة أو يوم ، وذلك أنه في العلو ، وأن صعودك إليه في يوم ، فإذا صعدوا إلى العرش فقد صعدوا إلى الله عز وجل ، وإن كانوا لم يروه ولم يساووه في الارتفاع في علوه ، فإنهم صعدوا من الأرض وعرجوا بالأمر إلى العلو ، قال تعالى [النساء : ١٥٨] ﴿بل رفعه الله إليه﴾ ولم يقل عنده ، وقال فرعون [غافر : ٣٦ - ٣٧] ﴿يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى﴾ ثم استأنف الكلام فقال ﴿والى لأظنه كاذباً﴾ فيما قال لى أن إلهه فوق السماوات ، فبين الله سبحانه وتعالى أن فرعون ظن بموسى أنه كاذب فيما قال ، وعمد لطلبه ، حيث قاله مع الظن بموسى أنه كاذب ، ولو أن موسى قال إنه في كل مكان بذاته لطلبه في بيته أو في بدنه أو حشه ، فتعالى الله عن ذلك ، ولم يجهد نفسه ببيان الصرح .

قال أبو عبد الله (١) وأما الآى التى يزعمون أنها قد وصلها ولم يقطعها كما قطع الكلام الذى أراد به أنه على عرشه فقال [المجادلة : ٧] ﴿ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض﴾ فأخبر بالعلم ، ثم أخبر أنه مع كل مناج ، ثم ختم بالعلم بقوله ﴿إن الله بكل شىء عليم﴾ فبدأ بالعلم وختم بالعلم ، فبين أنه أراد أن يعلمهم حيث كانوا لا يخفون عليه ولا تحفى عليه مناجاتهم ، ولو اجتمع القوم فى أسفل ، وناظر إليهم فى العلو ، فقال : إنى لم أزل أراكم وأعلم مناجاتكم لكان صادقاً ، والله المثل الأعلى أن يشبه الخلق ، فإن أبوا إلا ظاهر التلاوة وقالوا : هذا منكم دعوى ، خرجوا عن قولهم فى ظاهر التلاوة ، لأن من هو مع الإثنين فأكثر هو معهم لا فيهم ومن كان مع شىء خلا جسمه . وهذا خروج من قولهم . وكذلك قوله تعالى [ق ١٦] ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد لأن ما قرب من الشىء ليس هو فى الشىء ، ففى ظاهر التلاوة على دعواهم أنه ليس فى

حبل الوريد ، وكذلك قوله [الزخرف : ٨٤] ﴿وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله﴾ لم يقل فى السماء ثم قطع كما قال [١٤ : الملك] ﴿أأمنتم من فى السماء﴾ ثم قطع فقال ﴿أن يخسف بكم الأرض﴾ ، وقال ﴿وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله﴾ يعنى إله أهل السماء وإله أهل الأرض وذلك موجود فى اللغة تقول : فلان أمير فى خراسان ، وأمير فى بلخ ، وأمير فى سمرقند ، وإنما هو فى موضع واحد ويخفى عليه ما وراءه ، فكيف العالى فوق الأشياء لا يخفى عليه شئ من الأشياء يدبره ، فهو إله فيهما إذ كان مدبراً لهما ، وهو على عرشه وفى كل شئ (١) ، تعالى عن الأشباه والأمثال » اهـ .

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن حنفية (٢) فى كتابه الذى سماه « اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء الصفات » قال فى آخر خطبته : فاتفقت أقوال المهاجرين والأنصار فى توحيد الله عز وجل ومعرفة أسمائه وصفاته وقضائه قولاً واحداً وشرعاً ظاهراً وهم الذين نقلوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حتى قال « عليكم بسنتي » وذكر الحديث (٣) وحديث « لعن الله من أحدث حدثاً » قال فكانت كلمة الصحابة على الاتفاق من غير اختلاف ، وهم الذين أمرنا بالأخذ عنهم ، إذ لم يختلفوا بحمد الله تعالى فى أحكام التوحيد وأصول الدين من الأسماء والصفات كما اختلفوا فى الفروع ، ولو كان منهم فى ذلك اختلاف لنقل إلينا كما نقل سائر الاختلاف ، فاستقر صحة ذلك عند خاصتهم وعامتهم حتى أدوا ذلك إلى التابعين لهم بإحسان ، فاستقر صحة ذلك عند العلماء المعروفين ، حتى نقلوا ذلك قرناً بعد قرن ، لأن الاختلاف كان عندهم فى الأصل كفرأ . والله المنة .

« ثم إنى قائل — وبالله أقول — : لما اختلفوا فى أحكام التوحيد ، وذكر الأسماء والصفات ، على خلاف منهج المتقدمين من الصحابة والتابعين ، فخاض فى ذلك من لم يعرفوا بعلم الآثار ، ولم يعقلوا قولهم بذكر الأخبار ، وصار معولهم على أحكام هوى

(١) لعل الصواب « وفوق كل شئ » .

(٢) الشيرازى شيخ إقليم فارس ، صاحب الأحوال والمقامات ، المتمسك بالكتاب والسنة ، الفقيه على مذهب الشافعى . كان من أولاد الأمراء فترهه : توفى فى رمضان سنة ٣٧١ . اهـ من شذرات الذهب .

(٣) يعنى حديث العرياض بن سارية « وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون . فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد . وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومضلات الفتن فإن كل بدعة ضلالة » قال فى الترغيب والترهيب فى باب الترغيب فى اتباع الكتاب والسنة : رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه . وقال الترمذى : حسن صحيح .

النفس المستخرجة من سوء الظن به على مخالفة السنة ، والتعلق منهم بآيات لم يسعدهم فيها ما وافق النفوس ، فتأولوا على ما وافق هواهم ، وصححوا بذلك مذهبهم ، احتجت إلى الكشف عن صفة المتقدمين ، ومأخذ المؤمنين ، ومنهاج الأولين ، خوفاً من الوقوع في جملة أقاويلهم التي حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته ومنع المستجيبين له حتى حذوهم . ثم ذكر أبو عبد الله (١) خروج النبي صلى الله عليه وسلم وهم يتنازعون في القدر وغضبه ، وحديث « لا ألفين أحدكم (٢) » وحديث « ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » وأن الناجية ما كان عليه هو وأصحابه ، ثم قال « فلزم الأمة قاطبة معرفة ما كان عليه الصحابة ، ولم يكن الوصول إليه إلا من جهة التابعين لهم بإحسان ، المعروفين ينقل الأخبار ، ممن لا يقبل المذاهب المحدثه ، فيتصل ذلك قرناً بعد قرن ممن عرفوا بالعدالة والأمانة الحافظين على الأمة ما لهم وما عليهم من إثبات السنة » إلى أن قال :

« فأول ما نبتدئ به ما أوردنا هذه المسألة من أجله ذكر أسماء الله عز وجل في كتابه ، وما بين صلى الله عليه وسلم من صفاته في سنته ، وما وصف به عز وجل مما سنذكر قول القائلين بذلك ، مما لا يجوز لنا في ذلك أن نرده إلى أحكام عقولنا بطلب الكيفية بذلك ، ومما قد أمرنا بالاستسلام له » إلى أن قال : « ثم إن الله تعرف إلينا — بعد إثبات الوحدانية والإقرار بالالوهية — أن ذكر تعالى في كتابه بعد التحقيق بما بدأ من أسمائه وصفاته وأكد عليه السلام بقوله ، فقبلوا منه كقبولهم لأوائل التوحيد من ظاهر قوله لا إله إلا الله ، إلى أن قال « بإثبات نفسه بالتفصيل من الجمل فقال لموسى عليه السلام [طه : ٤١] « واصطنعتك لنفسى » وقال [آل عمران : ٣٠] « ويحذركم الله نفسه » ، ولصحة ذلك واستقرار ما جاء به المسيح عليه السلام فقال [المائدة : ١١٦] « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » ، وقال عز وجل [الأنعام : ٥٤] « كتب ربكم على نفسه الرحمة » وأكد عليه السلام صحة إثبات ذلك في سنته فقال « يقول الله عز وجل : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي » ، وقال « كتب كتاباً بيده على نفسه : إن رحمتي غلبت غضبي » ، وقال « سبحان الله رضا نفسه » وقال في محاجة آدم لموسى « أنت الذى اصطفاك الله واصطنعتك لنفسه » ، فقد صح بظاهر قوله أنه أثبت لنفسه

(١) يعنى ابن خفيف (٢) يعنى حديث أبي رافع مرفوعاً « لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى فيقول : لا أدري ، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه والبيهقى في « دلائل النبوة » قاله في « المشكاة »

نفساً وأثبت له الرسول ذلك ، فعلى من صدق الله ورسوله اعتقاد ما أخبر به عن نفسه ويكون ذلك مبنياً على ظاهر قوله [الشورى : ١١] ﴿ ليس كمنه شيء ﴾ .

ثم قال « فعلى المؤمنين خاصتهم وعامتهم قبول كل ما ورد عنه عليه السلام بنقل العدل عن العدل حتى يتصل به صلى الله عليه وسلم ، وإن مما قضى الله علينا في كتابه ووصف به نفسه ووردت السنة بصحة ذلك أن قال [النور : ٣٥] ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ ثم قال عقيب ذلك ﴿ نور على نور ﴾ وبذلك دعاه صلى الله عليه وسلم « أنت نور السماوات والأرض » . ثم ذكر حديث أبي موسى « حجاب النور - أو النار - لو كشفه لا حرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وقال « سبحات وجهه » جلاله ونوره - نقله عن الخليل وأبي عبيد . وقال عبد الله بن مسعود « نور السماوات » نور وجهه .

ثم قال (١) « ومما ورد به النص أنه حى وذكر قوله تعالى [البقرة : ٢٢٥] ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ والحديث ، يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث » قال (١) : « ومما تعرف الله إلى عبادته أن وصف نفسه أن له وجهاً موصوفاً بالجلال والإكرام ، فاثبت لنفسه وجهاً » وذكر الآيات ثم ذكر حديث أبي موسى المتقدم فقال : فى هذا الحديث من أوصاف الله عز وجل « لا ينام » موافق لظاهر الكتاب [البقرة : ٢٥٥] ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ وأن له وجهاً موصوفاً بالأنوار ، وأن له بصرأ ، كما علمنا فى كتابه أنه سميع بصير . ثم ذكر الأحاديث فى إثبات الوجه وفى إثبات السمع والبصر والآيات الدالة على ذلك ، ثم قال (١) « ثم إن الله تعالى تعرف إلى عبادته المؤمنين أن قال : له يدان قد بسطهما بالرحمة ، وذكر الأحاديث فى ذلك ثم ذكر شعر أمية بن أبى الصلت ، ثم ذكر حديث « يلقى فى النار وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع فيها رجله » وهى رواية البخارى ، وفى رواية أخرى « يضع عليها قدمه » ثم ما رواه مسلم البطين عن ابن عباس . أن الكرسى موضع القدمين ، وأن العرش لا يقدر قدره إلا الله . وذكر قول مسلم البطين نفسه وقول السدى وقول وهب بن منبه وأبى مالك ، وبعضهم يقول « موضع قدميه » وبعضهم يقول « واضع رجله عليه » .

ثم قال (١) « فهذه الروايات قد رويت عن هؤلاء من صدر هذه الأمة موافقة

للقول النبي صلى الله عليه وسلم متداولة في الأقوال ومحفوظة في الصدور ، ولا ينكر خلف عن السلف ولا ينكر عليهم أحد من نظرائهم ، نقلتها الخاصة والعامة مدونة في كتبهم ، إلى أن حدث في آخر الأمة من قتل الله عددهم ممن حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مجالستهم ومكالمتهم وأمرنا أن لا نعود مرضاهم ولا نشيع جنائزهم ، فقصد هؤلاء إلى هذه الروايات فضربوها بالتشبيه ، وعمدوا إلى الأخبار فعملوا في دفعها إلى أحكام المقاييس وكفر المتقدمين ، وأنكروا على الصحابة والتابعين ، وردوا على الأمة الراشدين ، فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل .

ثم ذكر (١) المأثور عن ابن عباس وجوابه لنجدة الحروري . ثم حديث الصورة (٢) وذكر أنه صنف فيه كتاباً مفرداً واختلاف الناس في تأويله ، ثم قال (١) « وسنذكر أصول السنة وما ورد من الاختلاف فيما نعتقه فيما خالفنا فيه أهل الزيغ وما وافقنا فيه أصحاب الحديث من المثبتة إن شاء الله » . ثم ذكر الخلاف في الإمامة واحتج عليها ، وذكر اتفاق المهاجرين والأنصار على تقديم الصديق وأنه أفضل الأمة ، ثم قال (١) « وكان الاختلاف في خلق الأفعال : هل هي مقدرة أم لا ؟ » قال « وقولنا فيها أن أفعال العباد مقدرة معلومة » وذكر إثبات القدر ، ثم ذكر الخلاف في أهل الكبائر ، ومسألة الأسماء والأحكام ، وقال « قولنا فيها أنهم مؤمنون على الإطلاق ، وأمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم » ، وقال « أصل الإيمان موهبة يتولد منها أفعال العباد ، فيكون أصل التصديق والإقرار والأعمال » وذكر الخلاف في زيادة الإيمان ونقصانه وقال « قولنا إنه يزيد وينقص » قال « ثم كان الاختلاف في القرآن مخلوقاً وغير مخلوق ، فقولنا وقول أئمتنا أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأنه صفة الله ، منه بدأ قولاً وإليه يعود حكماً » ثم ذكر الخلاف في الرؤية وقال « قولنا وقول أئمتنا فيما نعتقد أن الله يرى في القيامة » وذكر الحجة .

ثم قال (١) « اعلم رحمك الله أني ذكرت أحكام الاختلاف على ما ورد من ترتيب المحدثين في كل الأزمنة ، وقد بدأت أن أذكر أحكام الجمل من العقود فأقول : ونعتقد أن الله عز وجل له عرش ، وهو على عرشه ، فوق سبع سمواته . بكل أسمائه وصفاته كما قال [طه : ٥] ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [السجدة : ٥] يدبر الأمر من

(١) حديث « خلق الله آدم على صورته » .

(٢) أي ابن خفيف .

من السماء إلى الأرض ﴿ ولا نقول إنه في الأرض كما هو في السماء على عرشه ، لأنه هالم بما يجرى على عباده ثم يعرج إليه ﴾ إلى أن قال « ونعتقد أن الله تعالى خلق الجنة والنار ، وأنهما مخلوقتان للبقاء لا للفناء ﴾ إلى أن قال « ونعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم عرج بنفسه إلى سدرة المنتهى ﴾ إلى أن قال « ونعتقد أن الله قبض قبضتين فقال : هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار . ونعتقد أن للرسول صلى الله عليه وسلم حوضاً ، ونعتقد أنه أول شافع وأول مشفع ﴾ وذكر الصراط والميزان والموت ، وأن المقتول قتل بأجله واستوفى رزقه ، إلى أن قال « ومما نعتقد أن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الآخر فيبسط يده فيقول : ألا هل من سائل ؟ الحديث (١) وليلة النصف من شعبان وعشية عرفة . وذكر الحديث في ذلك . قال (٢) « ونعتقد أن الله تعالى كلم موسى تكليماً ، واتخذ إبراهيم خليلًا ، وأن الخلعة غير الفقر ، لا كما قال أهل البدع . ونعتقد أن الله تعالى خص محمداً صلى الله عليه وسلم بالرؤية ، واتخذ خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا . ونعتقد أن الله تعالى اختص بمفتاح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله [لقمان ٣٤] : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ الآية . ونعتقد أن المسيح على الحفين ثلاثاً للمسافر ويوماً وليلة للمقيم . ونعتقد الصبر على السلطان من قریش على ما كان من جور أو عدل ما أقام الصلاة من الجمع والأعياد ، والجهاد معهم ماض إلى يوم القيامة ، والصلاة في الجماعة حيث ينادى لها واجب إذا لم يكن عذر أو مانع . والتراويح سنة . ونشهد أن من ترك الصلاة عمداً فهو كافر ، والشهادة والبراءة بدعة ، والصلاة على من مات من أهل القبلة سنة ، ولا نزل أحداً جنة ولا ناراً حتى يكون الله ينزلهم . والمراء والجدال في الدين بدعة . ونعتقد أن ما شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم إلى الله ، ونترحم على عائشة ونترضى عنها ، والقول في اللفظ والملفوظ وكذلك في الاسم والمسمى بدعة ، والقول في الإيمان مخلوق أو غير مخلوق بدعة » .

« واعلم أني ذكرت اعتقاد أهل السنة على ظاهر ما ورد عن الصحابة والتابعين مجملاً من غير استقصاء ، إذ تقدم القول من مشايخنا المعروفين من أهل الإبانة والديانة ، إلا أني أحببت أن أذكر عقود أصحابنا المتصوفة فيما أحدثته طائفة نسبوا إليهم ما قد تخرصوا من القول بما نزه الله تعالى المذهب وأهله من ذلك » إلى أن قال (٢) « وقرأت

(٢) أى ابن خفيف .

(١) وهو في صحيح البخارى ، في مواضع .

محمد بن جرير الطبري في كتاب سماه التبصير « كتب بذلك إلى أهل طبرستان في اختلاف عندهم ، وسألوه أن يصنف لهم ما يعتقدونه ويذهب إليه ، فذكر في كتابه اختلاف القائلين برؤية الله تعالى ، فذكر عن طائفة إثبات الرؤية في الدنيا والآخرة ، ونسب هذه المقالة إلى الصوفية قاطبة لم يخص طائفة ، فبين أن ذلك على جهالة منه بأقوال المخلصين منهم ، وكان من نسب إليه ذلك القول بعد أن ادعى على الطائفة ابن أخت عبد الواحد بن زيد (١) - والله أعلم بمحله عند المخلصين فكيف بابن أخته ، وليس إذا أحدث الزائع في نحلته قولاً نسب إلى الجملة ، كذلك في الفقهاء والمحدثين ليس من أحدث قولاً في الفقه - وليس فيه حديث يناسب ذلك - ينسب ذلك إلى جملة الفقهاء والمحدثين » .

« واعلم أن لفظ الصوفية وعلومهم تختلف ، فيطلقون ألفاظهم على موضوعات لهم ومرموزات وإشارات تجري فيما بينهم ، فن لم يداخلهم على التحقيق ونازل ما هم عليه رجع عنهم وهو خاسئ وحسير » .

ثم ذكر (٢) إطلاقهم لفظ الرؤية بالتقييد فقال : كثيراً ما يقولون رأيت الله يقول وذكر عن جعفر بن محمد قوله - لما سئل : هل رأيت الله حين عبده ؟ - قال رأيت الله ثم عبده . فقال السائل : كيف رأيته ؟ فقال : لم تره الأبصار بتحديد الأعيان ، ولكن رؤية القلوب بتحقيق الأيقان . ثم قال « وإنه تعالى يرى في الآخرة كما أخبر في كتابه وذكره رسوله صلى الله عليه وسلم ، هذا قولنا وقول أئمتنا ، دون الجهال من أهل الغباوة فينا . وإن مما نعتقد أن الله حرم على المؤمنين دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، وذكر ذلك في حجة الوداع ، فن زعم أنه يبلغ مع الله إلى درجة يبيح له ما حظر على المؤمنين - إلا المضطر على حال يلزمه إحياء النفس لو بلغ العبد ما بلغ من العلم والعبادات - فذلك كفر بالله ، وقائل ذلك قائل بالإباحة ، وهم المنسلخون من الديانة .

« وإن مما نعتقد ترك إطلاق تسمية العشق على الله تعالى . وبين أن ذلك لا يجوز لاشتقاقه ولعدم ورود الشرع به ، وقال : أدنى ما فيه أنه بدعة وضلالة . وفيما نص الله من ذكر الحجة كفاية . وأن مما نعتقد أن الله لا يحل في المراثيات ، وأنه المنفرد بكمال أسمائه وصفاته ، بائن من خلقه ، مستو على عرشه ، وأن القرآن كلامه غير

(١) البصري الزاهد شيخ الصوفية كان من أدرك الحسن البصري وأخذ عنه ، له ترجمة في الميزان
ولسانه فيها جرحة وتديله
(٢) ابن خفيف .

مخلوق حيث ما تلى ودرس وحفظ . ونعتقد أن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلًا ، ونبيًا محمدًا صلى الله عليه وسلم خليلًا وحيبًا ، والخلة لهما منه على خلاف ما قاله المعتزلة أن الخلة الفقر والحاجة » إلى أن قال : « والخلة والمحبة صفتان لله هو موصوف بهما ، ولا تدخل أوصافه تحت التكييف والتشبيه ، وصفات الخلق من المحبة والخلة جائز عليها الكيف ، فأما صفاته تعالى فعلمومة في العلم ، وموجودة في التعريف ، قد انتفى عنها التشبيه ، فالإيمان به واجب ، واسم الكيفية عن ذلك ساقط .

ومما نعتقد أن الله أباح المكاسب والتجارات والصناعات ، وإنما حرم الله الغش والظلم ، وأما من قال بتحريم تلك المكاسب فهو ضال مضل مبتدع ، إذ ليس الفساد والظلم والغش من التجارات والصناعات في شيء ، وإنما حرم الله ورسوله الفساد لا الكسب والتجارات ، فإن ذلك على أصل الكتاب والسنة جائز إلى يوم القيامة . وإن مما نعتقد أن الله لا يأمر بأكل الحلال ثم يعدمهم الوصول إليه من جميع الجهات ، لأن ما طالبهم به موجود إلى يوم القيامة . والمعتقد أن الأرض تخلو من الحلال والناس يتقبلون في الحرام فهو مبتدع ضال ، إلا أنه يقل في موضع ويكثر في موضع لا أنه مفقود من الأرض . ومما نعتقد أنه إذا رأينا من ظاهر جميل لا نهمه في مكسبه وماله وطعامه ، وجائز أن يؤكل طعامه ، والمعاملة في تجارته ، فليس علينا الكشف عما قاله ، فإن سأل سائل على سبيل الاحتياط جاز ، إلا من داخل الظلمة ، ومن ينزع عن الظلم وأخذ الأموال بالباطل ومعه غير ذلك فالسؤال والتوقي ، كما سأل الصديق غلامه ، فإن كان معه من المال سوى ذلك مما هو خارج عن الأموال فاختلفا فلا يطلق عليه اسم الحلال ولا الحرام إلا أنه مشتبّه ، فن سأل استبرأ لدينه ، كما فعل الصديق ، وأجاز ابن مسعود وسلمان الأكل منه وعليه التبعة ، والناس طبقات والدين الحنيفية السمحة . » وإن مما نعتقد أن العبد ما دامت أحكام الدار جارية عليه فلا يسقط عنه الخوف

والرجاء ، وكل من ادعى الأمن فهو جاهل بالله وبما أخبر به عن نفسه [الأعراف : ٩٩] ﴿ ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ ، وقد أفردت كشف عورات من قال بذلك . ونعتقد أن العبودية لا تسقط عن العبد ما عقل وعلم ما له وما عليه على أحكام القوة والاستطاعة ، إذ لم يسقط الله ذلك عن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، ومن زعم أنه قد خرج عن رق العبودية إلى فضاء الحرية بإسقاط العبودية والخروج إلى أحكام الأحدية المسدية بعلائق الآخرة فهو كافر لا محالة ، إلا من اعتراه علة أو رقة فصار معتوهاً أو مجنوناً أو مبرسماً وقد اختلط عقله ، أو لحقه غشية ارتفع عنه

بها أحكام العقل وذهب عنه التمييز والمعرفة ، فذلك خارج عن الملة مفارق للشرعة . ومن زعم الإشراف على الخلق يعلم مقاماتهم ومقدارهم عند الله - بغير الوحي المنزل من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم - فهو خارج عن الملة . ومن ادعى أنه يعرف مآل الخلق ومنقلبهم ، وعلى ماذا يموتون عليه ويحتم لهم ، بغير الوحي من قول الله وقول رسوله ، فقد باء بغضب من الله . والفراسة حق على أصول ما ذكرناه ، وليس ذلك مما رسمناه في شيء ، ومن زعم أن صفاته تعالى بصفاته - ويشير في ذلك إلى غير آية العظمة والتوفيق والهداية - وأشار إلى صفاته عز وجل القديمة فهو حلولي قائل باللاهوتية والالتحام ، وذلك كفر لا محالة .

ونعتقد أن الأرواح كلها مخلوقة ، ومن قال إنها غير مخلوقة فقد ضاهى قول النصارى النسطورية في المسيح ، وذلك كفر بالله العظيم . ومن قال إن شيئاً من صفات الله حال في العبد ، أو قال بالتبعض على الله فقد كفر .

والقرآن كلام الله ليس بمخلوق ، ولا حال في مخلوق ، وإنه - كيفما ما تلى وقرئ وحفظ - فهو صفة الله عز وجل ، وليس الدرس من المدروس ، ولا التلاوة من المتلو ، لأنه عز وجل بجميع صفاته وأسمائه غير مخلوق ، ومن قال بغير ذلك فهو كافر ونعتقد أن القراءة الملحنة بدعة وضلالة ، وأن القصائد بدعة ومجراها على قسمين : فالحسن من ذلك ذكر آلاء الله ونعمائه ، وإظهار نعت الصالحين وصفة المتقين ، فذلك جائز ، وتركه والاشتغال بذكر الله والقرآن والعلم أولى به . وما جرى على وصف المراثيات ونعت المخلوقات فاستماع ذلك كفر ، واستماع الغناء والربيعات على الله كفر ، والرقص بالإيقاع ونعت الرقاصين على أحكام الدين فسق ، وعلى أحكام التواجد والغناء هو ولعب ، وحرام على كل من يسمع القصائد والربيعات الملحنة الجأت بين أهل الأطباع على أحكام الذكر إلا لمن تقدم له العلم بأحكام التوحيد ومعرفة أسمائه وصفاته وما يضاف إلى الله تعالى من ذلك وما لا يليق به عز وجل مما هو منزله عنه ، فيكون استماعه كما قال [الزمر : ١٨] ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ الآية ، وكل من جهل ذلك وقصد استماعه على الله غير تفصيل فهو كافر لا محالة ، فكل من جمع القول وأصغى بالإضافة إلى الله فغير جائز ، إلا لمن عرف بما وصفت من ذكر الله ونعمائه ، وما هو موصوف به عز وجل مما ليس للمخلوقين فيه نعت ولا وصف ، بل ترك ذلك أولى وأحوط . والأصل في ذلك أنها بدعة ، والفتنة فيها غير مأمونة (م - ٤ * الفتوى الحموية)

على استماع الغناء ، والربيعيات بدعة ، وذلك مما أنكره المطلبي (الشافعي) ومالك والثوري ويزيد بن هارون وأحمد بن حنبل وإسحاق ، والاقتداء بهم أولى من الاقتداء بمن لا يعرفون في الدين ولا لهم قدم عند المخلصين . وبلغني أنه قيل لبشر بن الحارث (١) : إن أصحابك قد أحدثوا شيئاً يقال له القصائد ، قال : مثل ايش ؟ قال : مثل قوله « اصبري يانفس حتى تسكني دار الجليل » فقال حسن ، وأين يكون هؤلاء الذين يستمعون ذلك ؟ قال قلت ببغداد . فقال : كذبوا ، والله الذي لا إله غيره لا يسكن ببغداد من يستمع ذلك .

قال أبو عبد الله (٢) ومما نقول وهو قول أئمتنا إن الفقير إذا احتاج وصبر ولم يتكلف إلى وقت يفتح الله له كان أعلى ، فمن عجز عن الصبر كان السؤال أولى به ، على قوله صلى الله عليه وسلم « لأن يأخذ أحدكم حبله » الحديث (٣) . ونقول إن ترك المكاسب غير جائز إلا بشرائط موسومة من التعفف والاستغناء عما في أيدي الناس . ومن جعل السؤال حرفة وهو صحيح فهو مذموم في الحقيقة خارج (٤) . ونقول : إن المستمع إلى الغناء والملاهي فإن ذلك كما قال عليه السلام « الغناء ينبت النفاق في القلب » وإن لم يكفر فهو فسق لا محالة . والذي نختاره قول أئمتنا إن ترك المراء في الدين والكلام في الإيمان مخلوق أو غير مخلوق ، ومن زعم أن الرسول صلى الله عليه وسلم واسطة يؤدي ، وأن المرسل إليهم أفضل ، فهو كافر بالله . ومن قال بإسقاط الوسائط على الجملة فقد كفر . اهـ (٥) .

ومن متأخريهم الشيخ الإمام أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح (٦) قال في كتاب « الغنية » : أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهو أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد - إلى أن قال - وهو بجهة العلو ، مستو على العرش ، محتو على الملك ، محيط علمه بالأشياء ؟ ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ : [فاطر ٩] يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴿ : [السجدة ٤] ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان ، بل

(١) المعروف بالخافي أحد رجال الطريقة المتوفى سنة ٢٢٦ هـ .

(٢) أي ابن خفيف (٣) تمامه : « فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه » رواه البخاري في باب كسب الرجل وعمله بيده من كتاب البيوع في صحيحه . (٤) أي عن طريقة الصالحين (٥) أي انتهى كلام ابن خفيف .

(٦) الجيلاني . قال عنه الذهبي في العلو : شيخ الإسلام سيد الوعاظ . توفي سنة ٥٦١ هـ .

يقال : إنه في السماء على العرش ، كما قال [طه ٥] : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ . وذكر آيات وأحاديث ، إلى أن قال « وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل ، وأنه استواء الذات على العرش ، قال : وكونه على العرش المذكور في كل كتاب أنزله على كل نبي أرسله بلا كيف » . وذكر كلاماً طويلاً لا يحتمله هذا الموضع ، وذكر في سائر الصفات نحو هذا . ولو ذكرت ما قاله العلماء في ذلك لطال الكتاب جداً .

قال أبو عمر بن عبد البر : « رويناه عن مالك بن أنس وسفيان الثوري وسفيان ابن عيينة والأوزاعي ومعمّر بن راشد في أحاديث الصفات أنهم كلهم قالوا : أمروها كما جاءت ، قال أبو عمر : ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من نقل الثقات أو جاء عن أصحابه رضي الله عنهم فهو علم يدان به ، وما أحدث بعدهم ولم يكن له أصل فيما جاء عنهم فهو بدعة وضلالة » ، وقال في « شرح الموطأ » لما تكلم على شرح حديث النزول قال « هذا حديث ثابت من جهة النقل صحيح الإسناد ، ولا يختلف أهل الحديث في صحته ، وهو منقول من طرق سوى هذه من أخبار العدول عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه دليل على أن الله في السماء ، على العرش استوى ، من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة ، وهو من حجّتهم على المعتزلة في قولهم : إن الله تعالى في كل مكان بذاته المقدسة . قال : والدليل على صحة ما قال أهل الحق قول الله - وذكر بعض الآيات - إلى أن قال : وهذا أشهر وأعرف عند العامة والخاصة من أن يحتاج إلى أكثر من حكايته ، لأنه اضطرار ، لم يوقفهم عليه أحد ولا أنكره عليهم مسلم . قال أبو عمر ابن عبد البر أيضاً « أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل قالوا في تأويل قوله [المجادلة ١٤] : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ : هو على العرش ، وعلمه في كل مكان » وما خالفهم في ذلك من يحتج بقوله . وقال أبو عمر أيضاً « أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة ، والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لا على الحجاز ، إلا أنهم لا يكتفون شيئاً من ذلك ، ولا يحدون فيه صفة محصورة . وأما أهل البدع - الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج - فكلهم ينكرها ، ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة ، ويزعم أن من أقر بها مشبه ، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود . والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم أئمة الجماعة » . فهذا كلام ابن عبد البر إمام أهل المغرب . وفي عصره الحافظ أبو بكر البيهقي ، مع توليه المتكلمين من أصحاب أبي الحسن

الأشعري (١) وذبه عنهم ، قال في كتاب « الأسماء والصفات » : « باب ما جاء في إثبات اليدين صفتين لا من حيث الجارحة ، لورود خبر الصادق به ، قال تعالى [ص ٧٥] : ﴿ يا إيليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ ؟ وقال [المائدة : ٦٤] ﴿ بل يدها مبسوطتان ﴾ ، وذكر الأحاديث الصحاح في هذا الباب مثل قوله في حديث الشفاعة « يا آدم أنت أبو البشر ، خلقت الله بيده » ومثل قوله في الحديث المتفق عليه « أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك الألواح بيده » وفي لفظ « وكتب لك التوراة بيده » ، ومثل ما في صحيح مسلم « وغرس كرامة أوليائه في جنة عدن بيده » ، ومثل قوله صلى الله عليه وسلم « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في سفرته ، نزلا لأهل الجنة (٢) » . وذكر أحاديث مثل قوله « بيدي الأمر » ، و « الخير في يديك » ، « والذي نفس محمد بيده » و « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » ، وقوله « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين » ، وقوله « يطوى الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » ، وقوله « يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض ؟ فإنه لم يغيض ما في يمينه ، وعرشه على الماء . وبيده الأخرى القسط يخفض ويرفع » وكل هذه الأحاديث في الصحاح . وذكر أيضاً قوله « إن الله لما خلق آدم قال له ويداه مقبوضتان : اختر أيهما شئت . قال : اخترت يمين ربى ، وكلتا يدي ربى يمين مباركة » ، وحديث « إن الله لما خلق آدم مسح على ظهره » إلى أحاديث أخرى ذكرها من هذا النوع . ثم قال البيهقي « أما المتقدمون من هذه الأمة فإنهم لم يفسروا ما كتبنا من الآيات والأخبار في هذا الباب » . وكذلك قال في الاستواء على العرش وسائر الصفات الخبرية ، مع أنه يحكى قول بعض المتأخرين .

(١) أبو الحسن الأشعري كان في أول نشأته معتزلياً ، ثم انتبه إلى فساد مذهب المعتزلة لكنه طفق يجادلهم - وهو في البصرة - بأساليبهم ومقاييسهم ، فلما انتقل إلى بغداد أراد الله له الخاتمة بالحسن ، فانتقل إلى مذهب السلف محضاً خالصاً ، وألف في ذلك آخر كتبه : الإبانة ، ومقالات الإسلاميين ، وفيهما قرر عقيدته التي تلقى الله عليها . وسيأتى نقل شيخ الإسلام ابن تيمية بعض كلام الأشعري في مقالات الإسلاميين والإبانة .

(٢) رواه البخارى في باب يقبض الله الأرض من كتاب الرقاق من صحيحه .

وقال القاضي أبو يعلى (١) في كتاب « إبطال التأويل » : « لا يجوز رد هذه الأخبار ، ولا التشاغل بتأويلها ، والواجب حملها على ظاهرها وأنها صفات الله لا تشبه صفات سائر الموصوفين بها من سائر الخلق ، ولا يعتقد التشبيه فيها ، لكن على ما روى عن الإمام أحمد وسائر الأئمة - وذكر بعض كلام الزهري ومكحول ومالك والثوري والأوزاعي والليث وحامد بن زيد وحامد بن سلمة وابن عيينة والفضيل ابن عياض ووكيع وعبد الرحمن بن مهدي وأسود بن سالم وإسحاق بن راهويه وأبي عبيد ومحمد بن جرير الطبري وغيرهم في هذا الباب ، وفي حكاية ألفاظهم طول - إلى أن قال « ويدل على إبطال التأويل أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين حملوها على ظاهرها ، ولم يتعرضوا لتأويلها ، ولا صرفوها عن ظاهرها - فلو كان التأويل سائغاً لكانوا أسبق إليه لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة » .

وقال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتكلم (٢) صاحب الطريقة المنسوبة إليه في الكلام في كتابه الذي صنفه في « اختلاف المصلين ، ومقالات الإسلاميين » وذكر فرق الروافض والخوارج والمرجئة والمعتزلة وغيرهم ثم قال : « مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث جملة : قول أصحاب الحديث وأهل السنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاء عن الله تعالى وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يردون شيئاً من ذلك ، وأن الله واحد أحد فرد صمد لا إله غيره ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق والنار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأن الله على عرشه كما قال [طه ٥] : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وأن له يدين بلا كيف كما قال [ص : ٧٥] ﴿ خلقت بيدى ﴾ وكما قال [المائدة : ٦٤] ﴿ بل يدها مبسوطتان ﴾ وأن له عينين بلا كيف كما قال [القمر : ١٤] ﴿ تجري بأعيننا ﴾ وأن له وجهاً كما قال [الرحمن : ٢٧] ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ وأن أسماء الله تعالى لا يقال إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج وقرروا أن الله علماً كما قال [النساء : ١٦٥] ﴿ أنزله بعلمه ﴾ وكما قال [فاطر : ١١] ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ وأثبتوا السمع والبصر

(١) عالم العراق أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء البغدادى الحنبلى ، كان آية في معرفة مذهب الإمام أحمد ، صنف التصانيف الفائقة . توفي سنة ٤٥٨ هـ .
(٢) انظر التعليق رقم (١) في الصفحة السابقة .

ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة ، وأثبتوا لله القوة كما قال [فصلت : ١٥] ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ وذكر مذهبهم فى القدر إلى أن قال « ويقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، والكلام فى اللفظ والوقف : من قال باللفظ وبالوقف فهو مبتدع عندهم ، لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق ولا يقال غير مخلوق . ويقولون أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر ، يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون ، لأنهم عن الله محجوبون ، قال عز وجل [المطففين : ١٥] ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ . وذكر قولهم فى الإسلام والإيمان والحوض والشفاعة وأشياء ، إلى أن قال « ويقولون بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ، ولا يقولون مخاوق . ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار » إلى أن قال ، « وينكرون الجدل والمراء فى الدين ، والخصومة والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل ويتنازعون فيه من دينهم ويسلمون الروايات الصحيحة ولما جاءت به الآثار الصحيحة التى جاء بها الثقات عدل عن عدل حتى ينتهى ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يقولون « كيف » ولا « لم » ؟ لأن ذلك بدعة » إلى أن قال « ويقولون أن الله يحيى يوم القيامة » كما قال تعالى [الفجر : ٢٢] ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ ، وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال [ق : ١٦] ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ إلى أن قال « ويرون مجانبية كل داع إلى بدعة ، والتشاغل (١) بقراءة القرآن وكتابة الآثار والنظر فى الفقه مع الاستكانة والتواضع وحسن الخلق مع بذل المعروف وكف الأذى وترك الغيبة والنميمة والسعاية وتفقد المآكل والمشارب » قال « فهذه جملة ما يأمرؤن به ويستسلمون إليه ويروونه ، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب ، وما توفيقنا إلا بالله وهو المستعان .

وقال الأشعرى أيضاً فى اختلاف أهل القبلة فى العرش فقال « قال أهل السنة وأصحاب الحديث : ليس بجسم ولا يشبه الأشياء ، وأنه استوى على العرش كما قال [طه : ٥] ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ولا نتقدم بين يدى الله فى القول ، بل نقول استوى بلا كيف . وأن له وجهاً كما قال [الرحمن : ٢٧] ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ وأن له يدين كما قال [ص : ٧٥] ﴿ خلقت بيدى ﴾ ، وأن له عينين كما قال [القمر : ١٤] ﴿ تجري بأعيننا ﴾ وأنه يحيى يوم القيامة هو وملائكته

كما ينزل إلى سماء الدنيا كما جاء في الحديث ، ولم يقولوا شيئاً إلا ما وجدوه في الكتاب أو جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالت المعتزلة : إن الله استوى على العرش بمعنى استولى . وذكر مقالات أخرى .

وقال أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي سماه « الإبانة في أصول الديانة » وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه ، وعليه يعتمدون في الذب عنه عند من يطعن عليه ، فقال : « فصل في إبانة قول أهل الحق والسنة : فإن قال قائل أنكروا قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة فعرفونا قولكم الذي به تقولون ، وديانتكم التي بها تدينون . قيل له : قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكلام ربنا وسنة نبينا وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل — نصر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته — قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل ، الذي أبان الله به الحق ورفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين وزيف الزائعين وشك الشاكين ، فرحمة الله عليه من إمام مقدم ، وجليل معظم ، وكبير مفهم .

« وجملة قولنا أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبما جاءوا به من عند الله ، وبما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا نرد من ذلك شيئاً . وأن الله واحد لا إله إلا هو ، فرد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً . وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وأن الجنة حق ، والنار حق ، وأن الساعة آتية ، وأن الله يبعث من في القبور . وأن الله مستو على عرشه كما قال [طه : ٥] الرحمن على العرش استوى » وأن له وجهاً كما قال [الرحمن : ٢٧] ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » وأن له يدين بلا كيف كما قال [ص : ٧٥] لما خلقت بيدي » وكما قال [المائدة : ٦٤] بل يده مبسوطتان ينفق كيف يشاء » وأن له عينين بلا كيف كما قال [القمر : ١٤] تجري بأعيننا » . وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالاً » وذكر نحواً مما ذكر في الفرق إلى أن قال « ونقول إن الإسلام أوسع من الإيمان ، وليس كل إسلام إيماناً . وندين بأن الله يقلب القلوب بين إصبعين من أصابع الله عز وجل ، وأنه عز وجل يضع السماوات على إصبع كما جاءت الرواية الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » إلى أن قال « وأن الإيمان قول وعمل ،

يزيد وينقص . ونسلم بالروايات الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التي رواها الثقات عدلاً عن عدل حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلى أن قال » ونصدق بجميع الروايات التي أثبتتها أهل النقل من النزول إلى سماء الدنيا وأن الرب عز وجل يقول : هل من سائل ؟ هل من مستغفر ؟ وسائر ما نقلوه وأثبتوه ، خلافاً لما قال أهل الزيغ والتضليل . ونعود فيما اختلفنا فيه إلى كتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وإجماع المسلمين وما كان في معناه ، ولا نبتدع في دين الله ما لم يأذن لنا به ، ولا نقول على الله ما لا نعلم ، ونقول : إن الله يحيى يوم القيامة كما قال [الفجر : ٢٢] ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ ، وإن الله يقرب من عباده كيف شاء كما قال [ق : ١٦] ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ وكما قال [النجم : ٩] ﴿ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ . إلى أن قال (١) وسنحتج لما ذكرناه من قولنا وما بقي مما لم نذكره باباً باباً :

ثم تكلم على أن الله يرى واستدل على ذلك ، ثم تكلم على أن القرآن غير مخلوق واستدل على من وقف في القرآن وقال لا أقول إنه مخلوق ولا غير مخلوق ، ورد عليه ثم قال (١) : (باب ذكر الاستواء على العرش) فقال « إن قال قائل : ما تقولون في الاستواء ؟ قيل له : نقول إن الله مستو على عرشه كما قال [طه : ٥] ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وقال تعالى [فاطر : ١٠] ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ وقال تعالى [النساء : ١٥٨] ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ وقال تعالى [السجدة : ٥] ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ وقال تعالى حكاية عن فرعون [غافر : ٣٦] ﴿ يا هامان ابن لي صرحاً لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السماوات ، فأطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه كاذباً ﴾ كذب موسى في قوله إن الله فوق السماوات ، وقال تعالى [الملك : ١٦] ﴿ ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾ فالسماوات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السماوات قال ﴿ ءأمنتم من في السماء ﴾ لأنه مستو على العرش الذي هو فوق السماوات ، وكل ما علا فهو سماء ، فالعرش أعلى السماوات وليس إذا قال ﴿ ءأمنتم من في السماء ﴾ يعني جميع السماء ، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات ، ألا ترى أن الله عز وجل ذكر السماوات فقال [نوح : ١٦] ﴿ وجهل القمر فيهن نوراً ﴾ فلم يرد أن القمر يملأهن وأنه فيهن جميعاً . ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء ، لأن الله على العرش الذي هو فوق السماوات ،

هلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض
ثم قال (١) : (فصل) وقد قال القائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية إن
معنى قوله [طه ٥] : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ أنه استولى وقهر وملك ، وإن الله
عز وجل في كل مكان ، وجحدوا أن يكون الله على عرشه كما قال أهل الحق ، وذهبوا
في الاستواء إلى القدرة ، فلو كان كما ذكروه لا فرق بين العرش والأرض السابعة لأن
الله قادر على كل شيء ، والأرض فالله قادر عليها وعلى الحشوش وعلى كل ما في العالم ،
فلو كان الله مستوياً على العرش بمعنى الاستيلاء وهو عز وجل مستول على الأشياء كلها ،
لكان مستوياً على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى الحشوش والأقدار ، لأنه قادر
على الأشياء مستول عليها ، وإذا كان قادراً على الأشياء كلها ولم يجز عند أحد من المسلمين
أن يقول : إن الله مستو على الحشوش والأخيلة ، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش
الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها ، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص بالعرش
دون الأشياء كلها . وذكر دلالات من القرآن والحديث والإجماع والعقل .

ثم قال : (١) : (باب الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدين) وذكر الآيات
على ذلك ، ورد على المتأولين لها بكلام طويل لا يتسع هذا الموضع لحكايته ، مثل
قوله « فإن سئلنا : أتقولون لله يدان ؟ قيل : نقول ذلك ، وقد دل عليه قوله تعالى
[الفتح ١٠] : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ وقوله تعالى [ص ٧٥] : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ ،
وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله مسح ظهر آدم بيده » ، و « خلق
جنة عدن بيده » ، و « كتب التوراة بيده » وقد جاء في الخبر المذكور عن النبي صلى الله
عليه وسلم « إن الله خلق آدم بيده » و « خلق جنة عدن بيده » ، و « كتب التوراة
بيده » و « غرس شجرة طوبى بيده » وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة أهل
الخطاب أن يقول القائل عملت كذا بيدي ، ويريد بها النعمة . وإذا كان الله إنما خاطب
العرب بلغتها ، وما يجري مفهوماً في كلامها ومعقولا في خطابها ، وكان لا يجوز في
خطاب أهل اللسان أن يقول القائل : فعلت بيدي ويعني بها النعمة ، بطل أن يكون
معنى قوله تعالى (بيدي) النعمة . وذكر كلاماً طويلاً في تقرير هذا ونحوه .

وقال القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتكلم ، وهو أفضل المتكلمين
المنتسبين إلى الأشعرى ، ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده ، قال في كتاب « الإبانة »

تصنيفه : « فإن قال : فما الدليل على أن لله وجهاً ويداً ؟ قيل له : قوله [الرحمن ٢٧] : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ وقوله تعالى [ص ٧٥] : ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ فأثبت لنفسه وجهاً ويداً . فإن قال : فلم أنكروا أن تكون وجهه ويده جارحة ، إن كنتم لا تعقلون وجهاً ويداً إلا جارحة ؟ قلنا : لا يجب هذا كما لا يجب إذا لم نعقل حياً عالماً قادراً إلا جسماً أن نقضى نحن وأنتم بذلك على الله سبحانه وتعالى ، وكما لا يجب في كل شيء ، كان قائماً بذاته أن يكون جوهرأ ، لأننا وإياكم لانجد قائماً بنفسه في شاهدنا إلا كذلك ، وكذلك الجواب لهم إن قالوا : فيجب أن يكون علمه وحياته وسمعه وبصره وسائر صفاته عرضاً ، واعتلوا بالوجود .

وقال (١) « فإن قال : فهل تقولون إنه في كل مكان ؟ قيل له : معاذ الله ، بل مستو على عرشه كما أخبر في كتابه فقال ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وقال الله تعالى [فاطر ١٠] : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ وقال [الملك ١٦] : ﴿ ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ﴾ قال : ولو كان في كل مكان لكان في بطن الإنسان وفه والحشوش والمواضع التي يرغب عن ذكرها ، ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة إذا خلق منها ما لم يكن ، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان ، ولصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض وإلى خلفنا وإلى يميننا وإلى شمالنا ، وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه ، وتخطئة قائله .

وقال (١) أيضاً في هذا الكتاب « صفات ذاته التي لم يزل ولا يزال موصوفاً بها وهي الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والإرادة ، والبقاء ، والوجه ، والعينان ، واليدان ، والغضب ، والرضا » .

وقال في كتاب التمهيد (٢) كلاماً أكثر من هذا وكلامه وكلام غيره من المتكلمين في مثل هذا الباب كثير لمن يطلبه ، وإن كنا مستغنين بالكتاب والسنة وآثار السلف عن كل كلام . وملاك الأمر أن يهب الله للعبد حكمة وإيماناً بحيث يكون له عقل ودين حتى يفهم ويدين ، ثم نور الكتاب والسنة يغنيه عن كل شيء ، ولكن كثيراً من الناس قد صار منتسباً إلى بعض طوائف المتكلمين ، ومحسناً للظن بهم دون غيرهم ، ومتوهماً أنهم حققوا في هذا الباب ما لم يحققه غيرهم ، فلو أتى بكل آية ما تبعها حتى يوثق بشيء

(١) أي القاضي أبو بكر الباقلاني .

(٢) الذي ألفه لابن مالك عضد الدولة فناخسرو

من كلامهم ، ثم هم مع هذا مخالفون لأسلافهم غير متبعين لهم ، فلو أنهم أخذوا بالهدى الذى يحدونه فى كلام أسلافهم لرجى لهم - مع الصدق فى طلب الحق - أن يزدادوا هدى ، ومن كان لا يقبل الحق إلا من طائفة معينة ثم لا يتمسك بما جاءت به من الحق ففيه شبه من اليهود الذين قال الله فيهم [البقرة : ١٩] ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم . قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ فإن اليهود قالوا : لا نؤمن إلا بما أنزل علينا ، قال الله تعالى لهم ﴿ فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ ؟ أى إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم ، يقول سبحانه وتعالى : لا لما جاءكم به أنبياءكم تتبعون ، ولا لما جاءكم به سائر الأنبياء تتبعون ، ولكن إنما تتبعون أهواءكم . فهذا حال من لم يتبع الحق لا من طائفته ولا من غيرها ، مع كونه يتعصب لطائفته بلا برهان من الله ولا بيان .

وكذلك قال أبو المعالى الجوينى (١) فى كتابه « الرسالة النظامية (٢) » : « اختلفت مسالك العلماء فى هذه الظواهر ، فرأى بعضهم تأويلها والتزام ذلك فى آى الكتاب وما يصح من السنن ، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل ، وإجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها إلى الرب » فقال « والذى نرتضيه رأياً وندين الله به عقداً (٣) اتباع سلف الأمة ، والدليل السمعى القاطع فى ذلك إجماع الأمة ، وهو حجة متبعة ، وهو مستند معظم الشريعة ، وقد درج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها - وهم صفوة الإسلام والمستقلون بأعباء الشريعة ، وكانوا لا يألون جهداً فى ضبط قواعد الملة ، والتواصى بحفظها ، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها - فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ، وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع ، فحق على ذى الدين أن يعتقد تنزيه البارى عن صفات المحدثين ، ولا يخوض فى تأويل المشكلات ، ويكل معناها إلى الرب تعالى . فليجر آية الاستواء أو الحىء وقوله ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ وقوله ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ وقوله ﴿ تجرى بأعيننا ﴾ وما صح من أخبار الرسول كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا . ١٥ .

(١) عبد الملك بن عبد الله أبو المعالى الجوينى إمام الحرمين . توفى سنة ٤٧٨ هـ .

(٢) أى اعتقاداً .

(٣) وهى من آخر مؤلفاته .

قلت : وليعلم السائل أن الغرض من هذا الجواب ذكر ألفاظ بعض أئمة العلماء الذين نقلوا مذهب السلف في هذا الباب ، وليس كل من ذكرنا شيئاً من قوله من المتكلمين وغيرهم يقول بجميع ما نقوله في هذا وغيره ، ولكن الحق يقبل من كل من تكلم به (١) ، وكان معاذ بن جبل يقول في كلامه المشهور عنه الذي رواه أبو داود في سننه : « اقبلوا الحق من كل من جاء به وإن كان كافراً - أو قال فاجراً - واحذروا زيفة الحكيم ، قالوا : كيف نعلم أن الكافر يقول كلمة الحق ؟ قال : إن على الحق نوراً » أو كلاماً هذا معناه .

فأما تقرير ذلك بالدليل ، وإمادة ما يعرض من الشبهة ، وتحقيق الأمر على وجه يخلص إلى القلب ما يبرده من اليقين ، ويقف على مواقف آراء العباد في هذه المهامة ، فما تتسع له هذه الفتوى ، وقد كتبت شيئاً من ذلك قبل هذا وخاطبت ببعض ذلك بعض من يجالسنا ، وربما أكتب إن شاء الله في ذلك ما يحصل به المقصود .

وجماع الأمر في ذلك أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه وقصد اتباع الحق وأعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه والإلحاد في أسماء الله وآياته ، ولا يحسب الحاسب أن شيئاً من ذلك يناقض بعضه بعضاً البتة ، مثل أن يقول القائل ما في الكتاب والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه في الظاهر قوله [الحديد ٤] : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ ، وقوله صلى الله عليه وسلم « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قبل وجهه » ونحو ذلك ، فإن هذا غلط ، وذلك أن الله معنا حقيقة ، وهو فوق العرش حقيقة ، كما جمع الله بينهما في قوله سبحانه وتعالى [الحديد ٤] : ﴿ هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء ، وهو معنا أينما كنا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الأوعال « والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه (٢) » ، وذلك أن كلمة « مع » في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال ، فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى ، فإنه يقال : مازلنا نسير والقمر معنا ،

(١) لأن الإسلام « دين الحق » كما في سورة التوبة ٣٣ ، وفي سورة الفتح ٢٨ ، وفي سورة الصف ٩

(٢) رواه الترمذي وحسنه كما في العلل للذهبي ص ١٧

أو والنجم معنا ، أو يقال : هذا المتاع معي ، لمجتمعه لك وإن كان فوق رأسك ، فالله مع خلقه حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة . ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب المراد ، فلما قال [الحديد ٤] : ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ﴾ — إلى قوله — وهو معكم أينما كنتم ﴿ دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم شهيد عليكم مهيمن عالم بكم ، وهذا معنى قول السلف أنه معهم بعلمه ، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته . وكذلك في قوله [المجادلة ٧] : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ — إلى قوله — إلا هو معهم أينما كانوا ﴿ الآية ، ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبه في الغار [التوبة ٤٠] : ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ كان هذا أيضاً حقاً على ظاهره ، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الإطلاع والنصر والتأييد ، وكذلك قوله تعالى [النحل ١٢٨] : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ ، وكذلك قوله لموسى وهارون [طه ٤٦] : ﴿ إني معكما أسمع وأرى ﴾ هنا المعية على ظاهرها ، وحكمها في هذه المواطن النصر والتأييد . وقد يدخل على صبي من يخيفه فيبكي ويشرف عليه أبوه من فوق السقف فيقول : لا تخف أنا معك ، أو أنا هنا ، أو أنا حاضر ، ونحو ذلك ينبه على المعية الموجبة بحكم الحال دفع المكروه ، ففرق بين معنى المعية وبين مقتضاها ، وربما صار مقتضاها من معناها فيختلف باختلاف المواضع فلفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع يقتضي في كل موضع أموراً لا يقتضيها في الموضع الآخر ، فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع ، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردنا ، وإن امتاز كل موضع بخصوصية ، فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب عز وجل محتلطة بالخلق حتى يقال قد صرفت عن ظاهرها ونظيرها — من بعض الوجوه — الربوبية والعبودية فإنها — وإن اشتركت في أصل الربوبية والتعبد — لها معان بحسب المواضع : فلما قال [الأعراف ١٢٢] : ﴿ رب العالمين رب موسى وهارون ﴾ كانت ربوبية موسى وهارون لها اختصاص زائد على الربوبية العامة للخلق ، فإن من أعطاه الله من الكمال أكثر مما أعطى غيره فقد ربه ورباه ربوبية وتربية أكل من غيره ، وكذلك قوله [الإنسان ٦] : ﴿ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ﴾ و [أول الإسراء] : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ ، فإن العبد تارة يعنى به المعبود فيعم الخلق كما في قوله [مريم ٩٣] : ﴿ إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾ ، وتارة يعنى العابد فيخص ، ثم يختلفون

فمن كان أعبد علماً وحالاً كانت عبوديته أكمل . فكانت الإضافة في حقه أكمل ، مع أنها حقيقة في جميع المواضع

ومثل هذه الألفاظ يسميها بعض الناس « مشككة » لتشكك المستمع فيها : هل هي من قبيل الأسماء المتواطئة ، أو من قبيل المشتركة في اللفظ فقط ، والمحققون يعلمون أنها ليست خارجة عن جنس المتواطئة ، إذ واضح اللغة إنما وضع اللفظ بإزاء القدر المشترك ، وإن كانت نوعاً مختصاً من المتواطئة فلا بأس بتخصيصها بلفظ .

ومن علم أن المعية تضاف إلى كل نوع من أنواع المخلوقات كإضافة الربوبية مثلاً ، وأن الاستواء على الشيء ليس إلا للعرش ، وأن الله يوصف بالعلو والفوقية الحقيقية ولا يوصف بالسفول ولا بالتحتية قط لا حقيقة ولا مجازاً ، علم القرآن على ما هو عليه من غير تحريف .

ثم من توهم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذب إن نقله عن غيره ، وضال إن اعتقده في ربه ، وما سمعنا أحداً يفهمه من اللفظ ، ولا رأينا أحداً نقله عن واحد . ولو سئل سائر المسلمين : هل يفهمون من قول الله ورسوله أن الله في السماء ؛ أن السماء تحويه لبادر كل أحد منهم إلى أن يقول : هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا ، وإذا كان الأمر هكذا فمن التكلف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئاً محالاً لا يفهمه الناس منه ، ثم يريد أن يتأوله ، بل عند المسلمين أن الله في السماء ، وهو على العرش ، واحد . إذ السماء إنما يراد به العلو ، فالمعنى أن الله في العلو لا في السفلى ، وقد علم المسلمون أن كرسى سبحانه وتعالى وسع السماوات والأرض ، وأن الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وأن العرش خلق من مخلوقات الله لا نسبة له إلى قدرة الله وعظمته ، فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقاً يحصره ويحويه ؟ وقد قال سبحانه [طه ٧١] : ﴿ وَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ وقال [آل عمران ١٣٧] : ﴿ فَسَيُرَوْنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بمعنى « على » ونحو ذلك ، وهو كلام عربي حتمية لا مجازاً ، وهذا يعلمه من عرف حقائق معاني الحروف وأنها متواطئة في الغالب لا مشتركة ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قبل وجهه ، فلا يبصقن قبل وجهه (١) » الحديث حق على ظاهره ، وهو سبحانه فوق العرش ، وهو قبل وجه المصلي ، بل هذا الوصف يثبت للمخلوقات ؛ فإن الإنسان لو أنه يتأجى السماء أو يتأجى الشمس والقمر لكانت

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث أنس .

السما والشمس والقمر فوقه وكانت أيضاً قبل وجهه ، وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم المثل بذلك والله المثل الأعلى ، ولكن المقصود بالتمثيل بيان جواز هذا وإمكانه ، لا تشبيه الخالق بالخلق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ما منكم من أحد إلا سيري ربه مخلياً به » فقال له أبو زين العقيلي : كيف يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله ، هذا القمر كلكم يراه مخلياً به ، وهو آية من آيات الله ، فالله أكبر » (١) أو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم . وقال « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر » فشبّه الرؤية بالرؤية وإن لم يكن المرئي مشابهاً للمرئي ، فالؤمنون إذا رأوا ربهم يوم القيامة وناجوه كل يراه فوقه قبل وجهه كما يرى الشمس والقمر ، ولا منافاة أصلاً .

ومن كان له نصيب من المعرفة بالله ، والرسوخ في العلم بالله ، يكون إقراره بالكتاب والسنة على ما هما عليه أوكد .

واعلم أن من المتأخرين من يقول : مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد ، وهذا اللفظ مجمل فإن قوله « ظاهرها غير مراد » يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين ، مثل أن يراد بكون الله قبل وجه المصلي أنه مستقر في الحائط الذي يصلي إليه ، وأن الله معنا ظاهر أنه إلى جانبنا ونحو ذلك ، فلا شك أن هذا غير مراد . ومن قال إن مذهب السلف أن هذا غير مراد فقد أصاب في المعنى ، لكن الخطأ بإطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والأحاديث . فإن هذا الحال ليس هو الظاهر على ما قد بيناه في غير هذا الموضع ، اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس ، فيكون القائل لذلك مصيباً بهذا الاعتبار ، معذوراً في هذا الإطلاق ، فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس ، وهو من الأمور النسبية . وكان أحسن من هذا أن يبين — لمن اعتقد أن هذا هو الظاهر — أن هذا ليس هو الظاهر ، حتى يكون قد أعطى كلام الله وكلام رسوله حقه لفظاً ومعنى . وإن كان الناقل عن السلف أراد بقوله « الظاهر غير مراد عندهم » أن المعاني التي تظهر من هذه الآيات والأحاديث مما يليق بجلال الله وعظمته ولا تختص بصفة المخلوقين ، بل هي واجبة لله أو جائزة لجوازاً ذهنيّاً أو جوازاً أخارجياً غير مراد . فهذا قد أخطأ فيما نقله عن السلف ، أو تعمّد الكذب ،

(١) في باب الرؤية من كتاب شرح السنة في سنن أبي داود من حديث أبي زين .

فما يمكن أحداً قط أن ينقل عن واحد من السلف ما يدل - لا نصاً ولا ظاهراً - أنهم كانوا يعتقدون أن الله ليس فوق العرش ، ولا أن الله ليس له سمع وبصر ويد حقيقة . وقد رأيت هذا المعنى ينتحله بعض من يحكيه عن السلف ويقولون : إن طريقة أهل التأويل هي في الحقيقة طريقة السلف ، بمعنى أن الفريقين اتفقوا على أن هذه الآيات والأحاديث لم تدل على صفات الله سبحانه وتعالى ، ولكن السلف سكتوا عن تأويلها ، والمتأخرون رأوا المصلحة في تأويلها لميسر الحاجة إلى ذلك ، ويقولون : الفرق أن هؤلاء يعينون المراد بالتأويل ، وأولئك لا يعينون لجواز أن يراذ غيره ، وهذا القول على الإطلاق كذب صريح على السلف ، أما في كثير من الصفات فقطعاً ، مثل أن الله تعالى فوق العرش ، فإن من تأمل كلام السلف المنقول عنهم الذي لم يحك هنا عشره علم بالاضطرار أن القوم كانوا مصرحين بأن الله فوق العرش حقيقة ، وأنهم ما اعتقدوا خلاف هذا قط ، وكثير منهم قد صرح في كثير من الصفات بمثل ذلك .

والله يعلم أني بعد البحث التام ومطالعة ما أمكن من كلام السلف ما رأيت كلام أحد منهم يدل - لا نصاً ولا ظاهراً ولا بالقرائن - على نفي الصفات الخبرية في نفس الأمر ، بل الذي رأيت أنه كثير من كلامهم يدل - إما نصاً وإما ظاهراً - على تقرير جنس هذه الصفات ، ولا أنقل عن كل واحد منهم إثبات كل صفة ، بل الذي رأيت أنه يثبتون جنسها في الجملة ، وما رأيت أحداً منهم نفاها ، وإنما ينفون التشبيه وينكرون على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه ، مع إنكارهم على من ينفي الصفات أيضاً ، كقول نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري : من شبه الله بخلقه فقد كفر ، من جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً .

وكانوا إذا رأوا الرجل قد أغرق في نفي التشبيه من غير إثبات الصفات قالوا : هذا جهمي معطل . وهذا كثير جداً في كلامهم ، فإن الجهمية والمعتزلة إلى اليوم يسمون من أثبت شيئاً من الصفات مشبهاً ، كذباً منهم وافتراء ، حتى إن منهم من غلا ورمى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بذلك ، حتى قال ثمامة بن الأشرس (١) من رؤساء الجهمية : ثلاثة من الأنبياء مشبهة : موسى حيث قال [الأعراف : ١٥٥]

(١) من كبار المعتزلة ومن رؤوس الضلالة . كان له اتصال بالرشيدي ثم المأمون . قال ابن قتيبة : كان ثمامة من رقة الدين وتنقص الإسلام والاستهزاء به وإرسال لسانه على ما لا يكون على مثله رجل يعرف الله ويؤمن به . ذكر ذلك في « لسان الميزان » وحقق أن وفاته كانت سنة ٢١٣ به .

﴿إن هي إلا فتنتك﴾ ، وعيسى حيث قال [المائدة ١١٦] : ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ ومحمد حيث قال « ينزل ربنا » ، وحتى إن جُلَّ المعتزلة تُدخل عامة الأئمة — مثل مالك وأصحابه والثوري وأصحابه والأوزاعي وأصحابه والشافعي وأصحابه وأحمد وأصحابه وإسحاق بن راهويه وأبي عبيد وغيرهم — في قسم المشبهة .

وقد صنف أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن درباس الشافعي جزءاً سماه « تنزيه أئمة الشريعة » ، عن الألقاب الشنيعة « ذكر فيه كلام السلف وغيرهم في معاني هذا الباب ، وذكر أن أهل البدع كل صنف منهم يلقب أهل السنة بلقب افتراه ، بزعم أنه صحيح على رأيه الفاسد ، كما أن المشركين كانوا يلقبون النبي صلى الله عليه وسلم بألقاب افتروها : فالروافض تسميهم نواصب ، والقدرية يسمونهم مجبرة ، والمرجئة تسميهم شكاككا ، والجهمية تسميهم مشبهة ، وأهل الكلام يسمونهم حشوية ونوابت وغثاء وغثرا ، إلى أمثال ذلك . كما كانت قريش تسمى النبي صلى الله عليه وسلم تارة مجنوناً وتارة شاعراً وتارة كاهناً وتارة مفترياً . قالوا : فهذا علامة الإرث الصحيح والمتابعة التامة ، قالوا : فإن السنة هي ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه اعتقاداً واقتصاداً وقولاً وعملاً ، فكما أن المنحرفين عنه يسمونهم بأسماء مذمومة مكذوبة وإن اعتقدوا صدقها بناء على عقيدتهم الفاسدة ، فكذلك التابعون له على بصيرة الذين هم أولى الناس به في الحيا والمات باطناً وظاهراً . وأما الذين وافقوه ببواطنهم وعجزوا عن إقامة الظواهر ، والذين وافقوه بظواهرهم وعجزوا عن تحقيق البواطن ، أو الذين وافقوه ظاهراً وباطناً بحسب الإمكان ، فلا بد للمنحرفين عن سنته أن يعتقدوا فيهم نقصاً يذمونهم به ، ويسمونهم بأسماء مكذوبة وإن اعتقدوا صدقها ، كقول الروافض من لم يبغض أبا بكر رضي الله عنه وعمر فقد أبغض علياً ، لأنه لا ولاية لعلي إلا بالبراءة منهما ، ثم يجعل من أحب أبا بكر وعمر ناصبياً بناء عن هذه الملازمة الباطلة التي اعتقدها صحيحة أو عاند فيها وهو الغالب . وكقول القدرية : من اعتقد أن الله أراد الكائنات وخلق أفعال العباد فقد سلب من العباد الاختيار والقدرة وجعلهم مجبورين كالجملادات التي لا إرادة لها ولا قدرة .

وكقول الجهمي : من قال إن الله فوق العرش فقد زعم أنه محصور ، وأنه جسم مركب محدود ، وأنه مشابه لخلقه . وكقول الجهمية المعتزلة : من قال إن الله علماً وقدرة فقد زعم أنه جسم مركب وأنه مشبه ، لأن هذه الصفات أعراض ، والعرض لا يقوم إلا بجوهر متحيز ، وكل متحيز جسم مركب أو جوهر فرد ، ومن قال ذلك (م - هـ * الفتوى الحموية)

فهو مشبه لأن الأجسام متماثلة . ومن حكى عن الناس المقالات وسماهم بهذه الأسماء المكنوبة بناء على عقيدتهم التي هم مخالفون لهم فيها فهو وربه ، والله من ورائه بالمرصاد ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله .

وجاع الأمر أن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام ، كل قسم عليه طائفة من أهل القبلة : قسمان يقولون تجرى على ظواهرها ، وقسمان يقولون هي على خلاف ظواهرها ، وقسمان يسكتون .

أما الأولون فقسمان : أحدهما من يجريها على ظواهرها ويجعل ظواهرها من جنس صفات المخلوقين ، فهؤلاء المشبهة ، ومذهبهم باطل أنكره السلف ، وإليه توجه الرد بالحق . الثاني من يجريها على ظواهرها اللائق بجلال الله ، كما يجرى ظاهر اسم العلم والتقدير والرب والإله والموجود والذات ونحو ذلك على ظواهرها اللائق بجلال الله ، فإن ظواهر هذه الصفات في حق المخلوق إما جوهر محدث وإما عرض قائم به ، فالعلم والقدرة والكلام والمشيئة والرحمة والرضا والغضب ونحو ذلك في حق العبد أعراض ، والوجه واليد والعين في حقه أجسام ، فإذا كان الله موصوفاً عند عامة أهل الإثبات بأن له علماً وقدرة وكلاماً ومشئة وإن لم يكن ذلك عرضاً يجوز عليه ما يجوز على صفات المخلوقين جاز أن يكون وجه الله ويداه صفات ليست أجساماً يجوز عليها ما يجوز على صفات المخلوقين ، وهذا هو المذهب الذي حكاه الخطابي وغيره عن السلف ، وعليه يدل كلام جمهورهم ، وكلام الباقيين لا يخالفه ، وهو أمر واضح ، فإن الصفات كالذات ، فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات ، فصفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقات ، فمن قال : لا أعقل علماً ويداً إلا من جنس العلم واليد المعهودين ، قيل له : فكيف تعقل ذاتاً من غير جنس ذوات المخلوقين ؟ ومن المعلوم أن صفات كل موصوف تناسب ذاته وتلائم حقيقته ، فمن لم يفهم من صفات الرب - الذي ليس كمثله شيء - إلا ما يناسب المخلوق فقد ضل في عقله ودينه .

وما أحسن ما قال بعضهم : إذا قال لك الجهمي كيف استوى ، أو كيف ينزل إلى سماء الدنيا ، أو كيف يده ؟ ونحو ذلك ، فقل له : كيف هو في نفسه ، فإذا قال لك لا يعلم ما هو إلا هو ، وكنه الباري تعالى غير معلوم للبشر ، فقل له : فالعلم بكيفية

الصفة مستلزم للعلم بكيفية الموصوف . فكيف يمكن أن تعلم كيفية صفة لموصوف لم تعلم
كيفيةه ؟ وإنما تعلم الذات والصفات من حيث الجملة على الوجه الذى ينبغى لك .
بل هذه المخلوقات فى الجنة قد ثبتت عن ابن عباس أنه قال « ليس فى الدنيا مما فى
الجنة إلا الأسماء » . وقد أخبر الله تعالى [السجدة ١٧] : أنه « لا تعلم نفس ما أخفى
لهم من قرة أعين » وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن « فى الجنة ما لا عين رأت ،
ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » فإذا كان نعيم الجنة - وهو خلق الله - كذلك ،
فما الظن بالخالق سبحانه وتعالى ؟ وهذه الروح التى فى بنى آدم قد علم العاقل اضطراب
الناس فيها ، وإمساك النصوص عن بيان كيفيةها ، أفلا يعتبر العاقل بها عن الكلام فى كيفية
الله تعالى ؟ مع أننا نقطع بأن الروح فى البدن ، وأنها تخرج منه وتخرج إلى السماء ، وأنها
تسل منه وقت النزاع كما نطقت بذلك النصوص الصحيحة ، لا نغالى فى تجريدها غلو
المتفلسفة ومن وافقهم حيث نفوا عنها الصعود والنزول والاتصال بالبدن والانفصال
عنه ، وتخططوا فيها حيث رأوها من غير جنس البدن وصفاته ، فعلم مماثلتها للبدن
لا يبنى أن تكون هذه الصفات ثابتة لها بحسبها . إلا أن يفسروا كلامهم بما يوافق
النصوص ، فيكونون قد أخطئوا فى اللفظ ، وأنى لهم بذلك .

وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرها ، أعنى الذين يقولون : ليس لها فى الباطن
مدلول هو صفة الله تعالى قط ، وإن الله لا صفة له ثبوتية ، بل صفاته إما سببية ،
وإما إضافية ، وإما مركبة منهما . أو يثبتون بعض الصفات وهى الصفات السبعة
أو الثمانية أو الخمسة عشر ، أو يثبتون الأحوال دون الصفات على ما قد عرف من
مذاهب المتكلمين ، فهؤلاء قسمان : قسم يتأولونها ويميزون المراد ، مثل قولهم :
استوى بمعنى استولى ، أو بمعنى علو المكانة والقدر ، أو بمعنى ظهور نوره للعرش ،
أو بمعنى انتهاء الخلق إليه ، إلى غير ذلك من معانى المتكلمين . وقسم يقولون : الله أعلم
بما أراد بها ، لكننا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجية عما علمناه .

وأما القسمان الواقفان فقسم يقولون : يجوز أن يكون ظاهرها المراد اللائق بجلال
الله ، ويجوز بأن لا يكون المراد صفة الله ونحو ذلك ، وهذه طريقة كثير من الفقهاء
وغيرهم . وقوم يمسكون عن هذا كله ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث
معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات ، فهذه الأقسام الستة كلها لا يمكن أن
يخرج الرجل عن قسم منهم .

والصواب في كثير من آيات الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة الثابتة كآليات والأحاديث الدالة على أن الله سبحانه وتعالى فوق عرشه ، وتعلم طريقة الصواب في هذا وأمثاله بدلالة الكتاب والسنة والإجماع على ذلك دلالة لا تحتل النقيض ، وفي بعضها قد يغلب على الظن ذلك مع احتمال النقيض ، وتردد المؤمن في ذلك هو بحسب ما يؤتاه من العلم والإيمان ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور . ومن اشتبه عليه ذلك أو غيره فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام يصلي من الليل قال : اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » وفي رواية لأبي داود أنه يكبر في صلاته ثم يقول ذلك . فإذا افتقر العبد إلى الله ودعاه ، وأدمن النظر في كلام الله وكلام رسوله وكلام الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، انفتح له طريق الهدى ، ثم إن كان قد خبر نهايات إقدام المتفلسفة والمتكلمين في هذا الباب ، وعرف غالب ما يزعمونه برهاناً وهو شبهة ، رأى أن غالب ما يعتمدونه يثول إلى دعوى لا حقيقة لها ، أو شبهة مركبة من قياس فاسد ، أو قضية كلية لا تصح إلا جزئية ، أو دعوى لا حقيقة له ، أو التمسك في المذهب والدليل بالألفاظ المشتركة ، ثم إن ذلك إذا ركب بألفاظ كثيرة طويلة غريبة عن من لم يعرف اصطلاحهم ، أو همت الغر ما يوهمه السراب للعطشان ، ثم ازداد إيماناً وعلماً بما جاء به الكتاب والسنة فإن « الضد يظهر حسنه الضد » وكل من كان بالباطل أعلم كان للحق أشد تعظيماً ، وبقدرة أعرف . فأما المتوسطون من المتكلمين فيخاف عليهم ما لا يخاف على من لم يدخل فيه وعلى من قد أنهاه نهايته ، فإن من لم يدخل فيه فهو في عافية ، ومن أنهاه فقد عرف الغاية ، فما بقي يخاف من شيء آخر ، فإذا ظهر له الحق وهو عطشان إليه قبله . وأما المتوسط فيتهم بما يتلقاه من المقالات المأخوذة تقليداً لمعظمة هؤلاء ، وقد قال بعض الناس : أكثر ما يفسد الدنيا نصف متكلم ، ونصف متفقه ، ونصف متطبب ، ونصف نحوي : هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد البلدان ، وهذا يفسد الأبدان ، وهذا يفسد اللسان .

ومن علم أن المتكلمين من المتفلسفة وغيرهم في الغالب ﴿ في قول مختلف ، يؤفك

عنه من أفك ﴿ [الذاريات ٨ - ٩] ، يعلم الذكى منهم والعاقل أنه ليس هو فيما يقوله على بصيرة ، وأن حجته ليست ببينة ، وإنما هي كما قيل فيها :

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقاً ، وكل كاسر مكسور

ويعلم العليم البصير بهم أنهم من وجه مستحقون ما قاله الشافعى رضى الله عنه حيث قال : « حكى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم فى القبائل والعشائر ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام » .

ومن وجه آخر إذا نظرت إليهم بعين القدر ، والحيرة مستولية عليهم ، والشيطان مستحوذ عليهم ، رحمتهم ورققت عليهم . أوتوا ذكاء ، وما أوتوا زكاء (١) . أعطوا فهوماً ، وما أعطوا علوماً . وأعطوا سمماً وأبصاراً وأفئدة ﴿ فإغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء ، إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿ [الأحقاف ٢٦] .

ومن كان علماً بهذه الأمور تبين له بذلك حذق السلف وعلمهم وخبرتهم ، حيث حذروا عن الكلام ، ونهوا عنه وذموا أهله ، وعابوهم . وعلم أن من ابتغى الهدى فى غير الكتاب والسنة لم يزد إلا بعداً .

فنسأل الله العظيم أن يهدينا صراطه المستقيم ،

صراط الذين أنعم عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين :

والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على محمد خاتم النبيين ،

وآله وصحبه أجمعين .

فهرست

الفتوى الحموية الكبرى

صفحة

٣	بيان عن هذه الفتوى وطبعاتها السابقة
٤	الاستفتاء وجوابه
٤	الآيات والأحاديث في الصفات ، ومذهب السلف وأئمة الهدى فيها
٥	لا يجوز أن يكون الخالفون أعلم من السالفين في أصول الدين
٦	لقد كذبوا على طريقة السلف ، وضلوا في تصويب طريقة الخلف
٦	اعتراف كبار الخلف في نهاية إقدامهم على خطئهم فيما ذهبوا إليه أولاً
٧	اعتراف الفخر الرازي ، وإمام الحرمين الجويني . وانظر ص ٥٨
٨	كتاب الله وسنة رسوله وعامة كلام الصحابة والتابعين والأئمة نصوص في إثبات الصفات
	إذا كان الحق فيما يقوله النافون للصفات الثابتة في الكتاب والسنة فكيف يجوز على الله ثم على رسوله وعلى
١٠	خير الأمة أن يتكلموا في خلاف الحق ؟
١١	اضطراب النفاة للصفات واختلافهم أكثر من أى اختلاف على وجه الأرض
١٢	الشبهات التي يسمونها « دلائل » تقلدوا أكثرها عن طاغوت من المشركين أو ورثتهم
١٣	الرسول أخبر بأن أمته ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة
١٣	أصل مقالة المتكلمين في تعطيل الصفات مأخوذ عن غير المسلمين
١٤	مذهب النفاة في الرب أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية أو مركبة منها
١٤	التأويلات الموجودة اليوم بأيدي الناس هي تأويلات بشر المريسي
١٥	مؤلفات الأئمة وأقوالهم في ذم مذهب المريسي ومن تابعه
	القول الشامل أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ،
١٦	ومن غير تكليف ولا تمثيل
١٧	كل واحد من فريق التعطيل والتمثيل جامع بين التعطيل والتمثيل
١٨	ليس في العقل الصريح ولا في النقل الصحيح ما يوجب مخالفة طريقة السلف
١٨	قول مالك : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم
١٨	إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم ليبين للناس أمور الإيمان بالله واليوم الآخر
١٩	المنعروفون عن طريق الصحابة والتابعين ثلاث طوائف : أهل التخلييل ، وأهل التأويل ، وأهل التجهيل

صفحة

٢٠	المقصودون بالرد عليهم في هذه الفتيا هم أهل التأويل
٢١	كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يذكر بين يديه من إثبات الصفات في التوراة
٢١	معاني التأويل في مختلف الاصطلاحات
٢٢	قول ابن عباس : تفسير القرآن على أربعة أوجه
٢٣	كلام الأوزاعي في إثبات الصفات
٢٤	قول عمر بن عبد العزيز ، وقول ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، وتلميذه مالك
٢٥	قول عبد العزيز الماجشون في إثبات الصفات
٢٨	قول الإمام أبي حنيفة في « الفقه الأكبر » في إثبات الصفات
٢٩	قول محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، وأقوال أئمة آخرين
٣٠	قول أبي عبيد القاسم بن سلام ، وقول عبد الله بن المبارك ، وحجاج بن زيد
٣١	قول سعيد بن عامر الضبي عن شيوخ الإمام أحمد ، وقول ابن خزيمة إمام الأئمة
٣١	قول عباد بن العوام من طبقة شيوخ الشافعي ، وقول الإمام عبد الرحمن بن مهدي
٣١	قول الأصمعي ، ومالك بن أنس ، ومحمد بن إدريس الشافعي
٣٢	أقوال محمد بن عبد الله بن أبي زمنين الغرناطي في كتابه في « أصول الدين »
٣٤	كلام أبي سليمان الخطابي في رسالته « الغنية عن الكلام وأهله »
٣٥	قول صاحب « الحلية » أبي نعيم الأصفهاني في عقيدة له
٣٦	وصية الإمام معمر بن أحمد الأصفهاني شيخ الصوفية في حدود المائة الرابعة
٣٦	قول أبي بكر أحمد بن محمد الحلال في « كتاب السنة »
٣٧	قول عمرو بن عثمان المكي - من نظراء الجنيدي - في كتابه « التعرف بأحوال العباد والمتعبدين »
٣٨	قول الإمام الحارث بن اسماعيل الهامسي في كتابه « فهم القرآن »
٤٢	قول الإمام محمد بن خفيف الشيرازي في كتابه « اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات »
٥٠	قول الإمام سيد الوعاظ عبد القادر الجيلاني في كتابه « الغنية »
٥١	قول أبي عمر بن عبد البر من أئمة المالكية
٥١	قول الحافظ البيهقي في كتاب « الأسماء والصفات »
٥٣	قول القاضي أبي يعلى في كتاب « إبطال التأويل »
٥٣	قول الإمام أبي الحسن الأشعري في كتابه « مقالات الإسلاميين »
٥٤	قول الإمام الأشعري في اختلاف أهل القبلة في العرش
٥٥	قوله في كتابه « الإبانة » وهو آخر كتاب صنفه
٥٥	قوله في أن الله يرى ، وأن القرآن غير مخلوق
٥٦	ما ذكره في الاستواء على العرش
٥٧	رده على المعتزلة والجهمية والحرورية في تأويل الاستواء
٥٧	قول الأشعري في الوجه واليمين والبصر واليد ورد على المتأولين لها
٥٧	قول أبي بكر الباقلاني في الوجه واليد

٥٨	قوله معاذ الله أن نقول إنه في كل مكان
٥٨	قوله في صفات الذات
٥٩	قول أبي المعالي الجويني في « الرسالة النظامية » آخر مؤلفاته . وانظر ص ٧
٦٠	الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور لمن قصد اتباع الحق
٦٣	معنى قولهم : إن ظاهر هذه الألفاظ غير مراد
٦٤	ليس في كلام السلف في الصفات الخبرية في نفس الأمر
٦٥	الإشارة إلى كتاب ابن درياس « تنزيه أئمة الشريعة عن الألقاب الشنيعة »
٦٦	الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام
	قول الإمام الشافعي : حكى في أهل الكلام أن يضربوا بالجرید والنعال ويقال فيهم : هذا جزاء من ترك
٦٩	الكتاب والسنة وأقبل على الكلام

